مدينة القاع

رواية

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر.

رواية: مدينة القاع.

الكاتب: محمود آل خليفة.

الطبعة الأولى: مارس 2017

رقم الإيداع: 7062 / 2017

الناشـــر:

"دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع"

المدير العام: **منة عامر.** Mobile: 01099654718

E.mail: **Odabaa2000@gmail.com**

Website: **http://entashaaer.wix.com/odabaa2000**

Facebook: **https://www.facebook.com/Odabaa2000**

تصميم الغلاف: **محمد علي.**

تصحيح لغوي: **مدحت رأفت.**

جميع الحقوق @ 2016 محفوظة للناشر

"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع"

يمنع منعاً باتاً بدون إذن خطي معتمد من الناشر:-

نسخ أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيهاالتسجيل الفوتوجرافي و التسجيل على أي أشرطة أو أقراص صلبة أو مرنة مقروءة أو النشر عبر الإنترنت أو أي برنامج إلكتروني أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها أدوات حفظ المعلومات و إسترجاعها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع".**

شكر خاص

شكر و تقدير إلي **عم السيد العطار**
الذي قص عليَّ قصة ذات يوم،
من فرط الإلقاء التشويقي
جعلني متمسكًا بحبال تلك القصة
لأغوص في تفاصيلها حتى أنتهي
وقد أوجعني وجعًا يصعب علي أهل الطب تطبيبه.

أشكر أيضًا

أخي الحبيب المهندس والكاتب المحترم **إسلام عبد الباري**
الذي سمح لي أن أقتبس شيئًا طفيفًا من روايته .

"وحدووه ، ولنبين القبس، مشار إليه داخل الرواية بقصة
طفل وطفلة أبرز أقوالهم "
تفتكر مشكلتنا هتتحل

إهـــداء

أهدي هذا الكتاب بعد أن أنسب الفضل إلى الله جل في علاه، إلى أفراد عائلتي الكريمة في جميع أنحاء الجمهورية عائلة " آل-خليفة " حيث يعتريني الفخر بانتسابي إليها

ثم إلى

أسرتي : أبي العزيز، وأمي الغالية، وأخواتي البنات: محبوبتي الكبيرة، ومعشوقتي الصغيرة.

إلى أخي الكبير، الذي تخضع له كل كلماتي احترامًا وإجلالاً، فهو من أقحمني في وهج القراءة الساطع، وحثني على طلب العلم بعدما كنت مثلما يُقال بالعامية : " مقضيها بومب ومراجيح "

إلى أخي: عادل بن إبراهيم آل-خليفة .

إلى أخي: محمد سكري.

وإلى أصدقاء الدرب: أحمد آل-رحيم ، حسام صابر ، السيد أحمد رحيم.

محمود آل خليفة

مدينة القاع

روايـــة

" إهداء "

إلى بشر لا يشبهون البشر،

بشر لا يشبهون إلا أنفسهم

محمود آل خليفة

مدخل لا بد منه . .

أهلاً بك قارئي العزيز في عالمي الفكري.

غريب هذا الشيء أليس كذلك ؟

أن تجد روائي يلقي ترحاباً على القاريء في إستهلاله الكتابي!، أضيف إلى حيز معلوماتك نقطة تبدو صغيرة، بأنك على مشارف رواية غير نمطية ، أعدك برواية غير اللواتي أعتدت عليهن. .

سأناقش معك حوادث ضخام ، فكثير منا ككتاب أو قراء ودّوا لو نوقشت، سوف ترى إسقاطاتٍ سياسية ، و أحوال إجتماعية ، مع نقد عميق لبعض، الكتاب من الذين فعمت كتاباتهم بأدنى الأوصاف و أقذع الألفاظ ، ليس إلا ليبتذل بها قارئ أراد الثقافة .

في حين يظن الكاتب من نفسه أنه عندما يقول لك "أنت" قد وصل حينها إلى ذروة إندهاشك!، أو عندما يستعمل الخيمياء ويقول لك أن " تراب الماس" هو هو التراب الطبيعي فتنبهر!، بكل هدوء لا أريد منك الآن سوى بعض الأوقات من التي لا تعيرها إهتمامًا، وشيء طفيف من التركيز حيث هذه الرواية الغامضة العميقة.

صدقني .

لم أضعها لذلك الملول ، أو لذاك البسيط، لقد وُضِعَت لهذا العنيد، لهاكم المثقفين دائمي البحث عن الحقيقة في المقام الأول، ومن ثم المنقبون وراء التذوق القرأي ، حتى الشغوف بأكثر القراءات إختلافًا، عاشق الغرابة ومبغض الروتينية.

أولاً: أعرفكم بنفسي،

أنا أدعى "حُلم" .

لا تتعجب ، فهكذا أسماني أبي، أنا شاب بسيط، سكندري حتى النخاع، ولست تدري كيف السكندري عند النزال، هاجرتُ مُدني منذ زمن بعيد، وها أنا قد عُدتُ إلى أوطاني سالماً، فقط أسعى لاستعادة ذكريات الطفولة الراحلة .

عند بداية رحلتي تلك، أقسمت أن أجوب الأرض بأكملها وأن أتنقل بين العقول، باحثًا عن نفسي وعن ذاتي، فكثيرٌ منا لازال يبحث عن ذاته مثلي، أما أنا فأجد نفسي وكياني في الترحال الفكري و السفر إلى الأماكن، لذلك يتوجب على الرحالة أن يصطحب أدواته حيث يذهب، فأنا لا أسير دون القلم والأوراق، دائم التسجيل والتدوين، هناك أحداث كثيرة تمر و أفكار ثقيلة تأتي، كان حتمًا عليك ألا تدعها تمر مرور الكِرام، وحقيق عليَّ تدوينها.

بعد يومين من عودتي، أخذت أدواتي ورحت أمارس ما دأبت عليه عادتي، حتى ألقتني قدماي إلى مكانٍ جمع بيني وبين من أحب كثيرًا في وقتٍ ما سابقًا، عوالم هذا المكان تغيرت كثيرًا ، لكن البقعة لم تتغير بعد، فالأماكن التي تستعيد فيها ذكراك، تعيدك إلى تلك اللحظات التي انجلت، دون إدراكها ؛ هي الوحيدة القادرة على انتزاع بعض الماء من عينيك مع شبح ابتسامة رقيقة، لقد تغير البَشَرِ، كنت قديمًا أراهم على غير هذه الحالة العجيبة، لا أعلم هل تغيروا حقًا، أم نظرة الصبى تختلف في تقديرها عن نظرات النضج؟،لم أكترث كثيرًا بهؤلاء الناس، وذلك لغرابة المشهد المريع الواقع مرمى الأبصار، هناك على البعيد يتواجد بقايا مدينة وحتوف بشر، وشظايا حياة، حين سألت عن أمر

تلك المدينة قيل لي؛ إنها تدعى مدينة القاع، لقد أعترتني الدهشة دون هوادة حقاً.
"مدينة القاع ! "

يا له من اسم يقفر الجنان الزاهية، العجيب أن قاطني المدينة لا يعبأون بذلك الاسم الضارع، ولكوني فضوليًا، تركت كل شيء خلفي، وذهبت من توّي أتحسس مدينة العجائب، وحال المسير إليها تداركت القلم والأوراق، كي أسجل وأنقل لكم كل عجيبة أراها هناك، فكانت أولى تلك العجائب، كلمة قد كُتِبَت على أبواب المدينة، جعلتني حائرًا، وجدت مكتوب على البوابة أعلاها :

" هَلُمَّ بالدخول أيها السيد، فعندنا العجب العجاب "

****

النهايـة

" هذه قاعدة فلسفية تستخدم.

أن النهايات ليست مطلقة فلابد أن تكون بدايات لأشياء آخرى .

برأيك كيف النهاية هنا ؟،

وما نوع البداية المرتقبة ؟ "

****

تقدم "حلم" بعض الخطوات إلى الأمام مما جعله على مقربة شديدة من الباب الشبة موصد، مد يده اليُمنى فدفع بها الباب، حتى فُتح له على مصراعيه، وقف قليلاً يتأمل مشهدًا، وكانت ليلته مقمرة، في مدخل المدينة أمر جد عجيب، لست أدري أهو مكان لمن ينتظر أن يفضى إلى ما قدمت يداه ؟، أم هي حياة البرزخ ما بعد الحياة الدنيا ؟، على كلٍ ، هو عبارة عن ممر ممدود مخضل بالندى ومخضب بالظلام، يقبع في يمناه مقعد مزركش فوقه مخادع تفصل بين القعود، على يسراه، المجلس ذاته، يبدو أن صانعهم واحد، على المقعد الأيمن يجلس شيخًا طاعنًا في السن، يمتلك شعرًا أبيض اللون، ولحيته كثة ومهندمه، مغلق العينين ، في حالة سراح عميق حول الملكوت، وقد احتلت البسمة الرقيقة أركان ثغره الهادئ؛ كانت في يده عصى يتكأ عليها، ورأسه مائل على الجدار خلفه، يبدو أنه بدنيا غير دنيانا، بجانب هذا الشيخ يجلس شابًا، جلوسه عجيب ويثير التساؤل، كأنه ينظر إلى السماء، فكاد أن ينفجر باكيًا، عيناه حارت فيهما الدمع، كالذي يناجي ربه ويتوسل إليه، لكنه توسل منقطع النظير لكونه شاب، بين المقعدين الأيمن و الأيسر، يقف شاب آخر حاله يشي بالمسير، فيسير كالذي، يروح ويأتي في أشواط، يحدق بالأرض وقد ظهر على قسمات وجهه ابتسامة إن دلت تدل على السخف و الإنكار و الإزدراء، من بينهم تجلس أمٌ مكلوم، لم تكن جالسة على أي من المقاعد، كانت جالسه في منتصف الممر، تضع كف يدها اليمنى فوق

وجنتها، فحملت أثقال رأسها على يدها التي أسندتها على فخذيها، وقد ابتل على إثر دموعها الثرى، وعلى المقعد الأيسر تجلس فتاة منهزمة الأركان، لثمت بكفيها وجهها، بجوار الفتاة يقف طفل وطفلة، رُصعت ملابسهم بالفقر ودثرت بالحاجة، فلا أحد يتكلم، لا أحد ينبس ببنت شفة، وجوم غائر وكدر محتد، ممر مستعر بالتساؤلات ومدينة يلتاع القلب لحالها .

وضع "حلم" البقجة التي كان يحملها فوق ظهره أرضًا، بعدما طالت نظرته على من بالممر، غير متناسي التقاف القلم و الأوراق، راح يتأمل وجوه نُطقِها سكوت، وسكوتها تعبير، وتعبيراتها تحكي حكايات وحكايات.

طوى أولى أوراق الصحيفة الواقعة بين كفيه، ليكتب أعلاها: "مدينة القاع "

ثم نظر ثانية إلى تلكم الوجوه حتى انتابه الحزن وبزغت روح الكتابة تستنطق الكلمات، لتجبره بالنظر إلى الأوراق بأن يكتب ...

"دعونا نُبحر سويًا في ثنايا أحوال هؤلاء البؤساء، فلقد صالت عليهم أيام من الأسى، وجالت ليالٍ من الكمدّ حتى جاست خلال العقول والمشاعر، فاخترقت كل الأمور الحياتية، المعنوية منها والمادية، قد تكون بضعًا من الأيام الخاليات التي انطفأت فيها كل الشهب، وذهب منها سراج الشمس، وتوارت أنوار أقمارها، فلا هي دعمتنا بحبٍ، ولا تركتنا نقتبس من وفاءها .

توقف عن الكتابه، أخذ ينظر إليهم مليًا حتى كادت عيناه أن تدرك الدمع، من فوره أمسك بالقلم ثانيًا فكتب :

" أتأسف لكوني تأثرت بتلك الثلة، ثمة أشخاص يطلقون العنان لعواطفهم الجامحة، فلا العاطفة أجبرت خواطرهم ولا الناس أنصفتهم، هناك في مدينة القاع، لا صوت يعلو فوق صوت المال، تستطيع أن تقول كل شيء بالمال، ترى الناس فيها ممتلخي العقول وما هم بذلك، لا تهدأ حركاتهم غدوًا وآصالًا، هؤلاء القوم هم من يعكسون أمراضهم النفسية على الأضعف فالأضعف، ولكن هل تقوى شوكة الضعيف ذات يوم ؟ قطعًا، إذا وجد من هو أضعف منه، فمجتمع اللاشيء لا يعبر عن شيء ولا يعطي شيء، ولا يترك أثر في نفوس القوم .

هَمّ "حُلم" واقفًا منزعجًا، لا يدري ما الذي أزعجه وقض مضجعه هكذا، أهي الكلمات التي لم يكتبها بل هي التي كتبته ؟، أم هو النَهم المعرفي حيال هذه المدينة وأمر هؤلاء النفر على وجه الخصوص؟، أغلق الصحيفة التي صافحها بمداد القلم و وميض الكلمات، ثم راح يتراجع إلى الخلف رويدًا رويدًا، حتى وجد نفسه بالخارج، إلى حيث النقطة التي دفع منها الباب الموصد ليفتح عليه هذا العالم، استدار ليعطي ظهره للباب ويستشرف العالم الآخر بوجهه، نظر قليلًا إلى الأمام فوجد فعلاً أن هناك فارق شاسع بين هذا العالم "المدينة"

وبين ذاك الواقع، لقد انقسمت الحياة على نفسها، انقلب الناس إلى جزأين، جزء في علّيين والآخر تحت الطين !

ظلت نفسه تحادثه كثيرًا، لقد عاين ما يذهب بالعقول، أخرج هاتفه، وتنقل بين الأسماء المحفوظة، ليختار الاتصال بصديق عمره وابن عمه في ذات الوقت .

- حُلم ؟، توّك ما تذكرت أن لك صديق يا رجل ؟

ابتسم حُلم عند سماعه هذه الكلمات، فرد مبتهجًا له :

- وهل هو صديق وحسب ؟

ضحك ابن عمه ثم أردف قائلاً :

- قُل لنفسك أيها النذل .

أرسل حُلم ضحكة على إثر المزاح، ثم رد في شيء من الجد

- أريد أن أراك الآن، عندي أمر جد خطير .

- أمر ؟، ماذا دهاك يا رجل ؟

- لا لا، الحكاية ليست لي، ولكنها عجيبة، أنتظرك في بيت عمك، والغداء عندي بالفعل كما يطيب لك .

قهقه صاحبه وارتفعت ضحكاته حتى أسمعت المارة، فقال وهو في خضم الضحك :

- أنت تضعني في المواقف حارقة الدم على الدوام .
- وهل تأخذ ذلك في الاعتبار ؟
- حقيقةً ؟
- نعم حقيقةً.
- ما دام هنالك طعام لا يعنيني شيئًا.

انتهيا من مراسم التلذذ بالطعام، وقالا بعض النكات حتى ارتفعت ضحكاتهم، مع عدد لا بأس به من الحكايات عن الماضي، فقاطع حُلم حديث باهر، قائلاً له في جد:

- ما أمر هذه المدينة يا باهر ؟

نظر باهر و قد اقتضب وجهه قائلاً له :

- و ماذا تريد منها ؟، دعك وقتامها يا رجل.

رد حُلم مستنكرًا لما يسمعه :

- لا، بل أريد أن أعرف عنها كل شيء، لقد رأيت بداخل ممرها العجب العجاب، حتى دفعني الفضول، إذا كان هذا حال الممر فما بالك بدهاليز المدينة ؟

قال له باهر في ملل ذريع :

- أنا لا أعرف لتركيبة دماغك كنه !، العالم بأسرة يفكر في ناحية وأنت تعيش في أوهام، تحدثنا تارة عن السيادة التي انتزعت منا عنوة، ولست أدري متى كُنا أسياد !

- أ .. أ .. أ

أراد أن يُقاطعه حُلم ولكن باهر لم يعطه فرصة التحدث فاسترسل باهر :

- أعلم، أعلم، ستقول لي التاريخ، فأهلاً بالتاريخ الذي يكتبه المنتصر، أتدري أنا أشك في كل الذي تتبناه.

اندفع حُلم متحدثًا حتى يستطيع أن يسجل اعتراضًا دون أن يُقاطعه باهر كالعادة :

- باهر، أرجوك دعك أنت وهذا الروث الفكري الذي تمجده ، فحديثك هذا له مقام أخر، أما الآن كل ما يعنيني أن تحدثني عن هذه المقاطعة، أو مدينة القاع كما ينعتونها.

- حسناً يا حلم ، و لكن هل لك في الاستماع الجيد من باع ؟

- بالطبع كلي آذان صاغية ، و جوارح متأثرة .

أعتدل باهر في جلسته ثم أخذ نفسًا عميقًا وراح يقص على حُلم القصة :

- سأطلعك على أمورها، ولأخبرك بأحوال هذه المدينة العجيبة فهي بقعة تبعد كثيرًا عن التعامل الآدمي، ولكنها تدنو من المقاطعات المجاورة لها جغرافيًا العجيب أن بداخلها كل ما يطيب لك ومنها جُلّ الأسى الذي لا يقوى على وصفه الأدب، سمعنا ذات يوم أنها غُزيت من جنس ليس من بني البشر، غُزاة لا يعرفون الرحمة والخير عندهم يكاد يكون معدومًا، هذه المدينة تشبه بعض البلدان المقبعة في بطون القارة السوداء، هناك في مدينة القاع، ومن سبعون أو ثمانون عامًا وضعت قوانين، صارمة على يد الأقوام الجدد، بأنه لا وجود للأسماء بعد اليوم، وإن حدث و أراد غير واحد منهم أن يُكنى، فلابد أولاً أن يؤدي فروضًا من الولاء الجازم، ومراسم من الطاعة المنيبة، غير أن ما يدفعه من مال مقابل اسمًا يُنادى به بين

الناس ليس بالقليل، لذا تجد أن اللاشيئين هناك كثر، فالأسماء فقط لنخبة المدينة السيادية ومن على شاكلتهم من الأثرياء، أطفال المدينة تلقاهم حيث ذهبت أو قصدت، تراهم يتجولون في تسول ليلاً نهارًا، لقد علَمتهم الأزقة وأشرفت على تربيتهم الأرض اليباب، ثم لقنتهم الشوارع نسق الذئاب، حتى أبهرتنا أرصفة الأمل في قولها المخيف .

" هؤلاء الفتيان اللاشيئين سيكونون لاشيء عظيم في المستقبل القادم "

هناك في القاع يا ابن العم، ترى الشباب تنصهر بين أقرانها حتى يأتي اليوم على أحدهم كي يتحول، فيتحول المسكين إلى ذات النفسية أو الشخصية التي كان يبغضها ليلة أمس، مدينة لا تهدأ ولا تنم.

رد حُلم على باهر وقد تفتحت قسمات وجهه :

- باهر .
- نعم ؟
- أنت حقًا باهر.

ثم ضحكا سويًا وراح الحديث يمتد ويأخذ مسارًا أخر عن العمل وعن الحياة، وحبذا لو كان عن حب هنا أو هناك.

في اليوم التالي وعند هبوط قوافل الليل المظلمة، عمد حُلم على ألا ينحى هؤلاء النفر جانبًا، يتقصى حقيقة ما ورائهم، ليُشبع فضوله ويرضي شغفه، تمالك نفسة ورتب فِكرهُ، ثم قصد بوابة القاع، وعقب الممشى الذي قطعه، داهمته بعض التساؤلات، فحين تنظر إلى معترك القاع تراه متوهجًا فواعجبًا، أهولاء بشر ؟، لست أدري فلعلهم يكونون، أنا لا أظن ذلك البتة، هؤلاء قتلى بلا إثم ولا حرج .

" هلم بالدخول أيها السيد، فعندنا العجب العجاب "

كل هذا شيء، وهذه المقولة شيء أخر، مُبدع من اختارها عنوانًا لقاع عجيب.

دفع الباب من فوره، وأخذ يتقدم كالتي تدب الأرض على استحياء، لم يتغير موضع مجلس أيًا من النفر صاحبي الممر، بدت أعينهم تخاطب حُلم وتحكي له أمورًا متراكمات، أحوال كثيرة مبعثرة كحبات رمل في جبل وقطرات ماء في عُباب، جلس حُلم القرفصاء في موضع يستطيع من خلاله أن يراهم في نظرة واحدة ثم راح يتفرس هذه الوجوه الغامضة، وفي يديه القلم والأوراق، وكان أول من وقعت عليهم الأنظار، تلك الأم المكلوم، وهذه الفتاة التي لثمت بكفيها ملامح وجهها، أخذ نفسًا عميقًا مستنشق من أمد بعيدثم كتب:

" أرى أمٌ لها من الولد اثنان، جوارها فتاة في مُقتبل العمر تكحلت وتزينت وتجملت، أما الأم في كل حين باكية لا يُسمع صدى أنينها إلا الرحمن، والفتاة

عشقت من الولدان، حبيب جاحد ليس بداخلهُ إنسان، تغدو الأم كالجبل فلا تنحني لأي شخص كان، والفتاة ذهب ريحها، تجرعت مُرّ الألم، فذاب رونقها و نسيت النسيان. "

وضَعَ "حُلم" القلم وأخذ يتعمق في نظرته على الأم المكلوم، حتى كادت عيناه أن تُزرف حفنة من الدمع على إثر حزن الأم الدفين، فتدارك القلم ثانية ثم كتب:

" تصحو الأم على تتابع الأيام على صوت مألوف يخرق المنام، صوت فلذة كبدها، والذي تكاد تذكره بعدما انقشعت صورته من عقلها، هذا الابن قد أُسِر وسُجِن فوق ما يزيد عن أعوام، القضية التي حُبس لأجلها يُعجب من حالها الإنس وكل الجان، فهي كمثل أقرانها من قضاية اللاشيئين، ما هى إلا حماسة مقيدة بحب التجربة، إنطلاقة مندفعة من إنطلاقات الشبان، قيل قديمًا في سالف الأزمان، أن الشباب عماد مدن القيعان، ولقد شيعت جنازة عماد في الأمس القريب !، فالشاب قد راق له اسمًا لأحد السادة فعمل على اقتباسه، وما الاقتباس إلا اعتراف جازم بعدم الملكية، فلابد أن يأخذ القانون مجراه, ويحاكم هذا المنحرف ويعاقب هذا الآثم على هذه الجريمة الشنعاء الشعواء، ألا تعلمون أن هذه الأسماء ملكية خاصة للسادة دون اللاشيئين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟

استنشق "حلم" نفسًا آخرًا، ولازالت عيناه تحدق بالأم المكلوم، ودون أن يدري سبقه القلم، ودون أن يدرك وثِبت الحروف ليكتب :

"ولدي...

أتعبتني السنين القاسية، أعجفت عبراتي ويبست جنة قلبي فأنستني حلو الأيام، أيا من كنت تسهر لراحتي، قد خاصم النوم عيني وأدمى الوجد كياني، سلامًا لا يعقبة نسيان."

هنا لم يستطع "حلم" أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك، حتى نطقت عيناه وما نطق العين إلا أدمع، وضع نقطه حبر لينهي بها الصفحة ثم طواها وثنى بأخرى بيضاء، ليكتب من أول السطر، لكنه قبل أن يشرع محبرًا على الورق، أدرك انتباهه حزن الفتاة الملفت، فنظر إليها مليًا، حتى أطاعه القلم وأذعنت له السطور كاتبًا :

" أرى في القاع لا وجود لسلوى الأشواق، ما هى إلا مبكى العشاق فأيما بكاء يُنصف قلبًا راق له حبًا فتذوق جرعة منه، ثم أبى أن يواصل وكان المسير عليه شاق ؟، شاق من جذوات اشتعلت في القلب من الأعماق، فعُمق القلب لا يستكين، من ذكريات موجعة، فالبغض حتمًا باق، وما البقية غير حفنة من ألم وحبٍ و كرهٍ واشتياق ، وهل يندمل جُرح كرامة العشاق؟، فويل لوِلدان القاع وسحقًا وبعدًا لآلام النفس والإرهاق، هذه الفتاة تملك من العمر زهاء

العشرون عامًا، ولها من الصحب واحدة أفكارهن متقاربة، في الخير سائرين، وفي غيره منطلقين، في التزين ما أجملهن، إذا تحدثت الفتاة، أنهك ثغرها قلوب الفتيان، وحين تتغندر تهلك شيم الشبان عندها من المنطق الساحر، ومن النظر المستميل الوافر، قوامها لا يبرح الأرض إلا إذا استشاط منه الواقف والقاعد والسائر، جميلة هى بكل ما أوتيت من لغتي في الوصف، ألم تسمع في يومك أو ليلتك عن رهف ؟ "

رفع "حلم" قلمه عن الورقة، وقال في نفسه، كيف أكنيها وهي من فئة اللاشيئين ؟،

ثم قال ثانية: لا يهم عساني أجد لها مخرجًا،

وعاود الكتابة مؤلفًا :

" نحن الآن على قيد قصة من الحب ستتلى في حروف فتانة ساحرات، قصة ستروى ثم ترمى في حيز المهملات، رهف التي لثمت وجهها بصحبة صديقتها المقربة، يمر عليهم اليوم بعد اليوم والليلة تلو الليلة، وما من يوم يذهب إلا وكانت رهف بصحبة صديقتها، وذات يوم سامر، جاءت الرفيقة إلى رهف متهللة الأسارير، تتكلم وتحكي في شغف، ثم توجم وتصمت في اشتياق، لوعة مختلطة مزجت بابتسامة لينة، حتى قالت لرهف بصوت حاني :

- التقيت به اليوم، ولم تكن لُقيا وحسب، كلقاء المشتاق لأوطانه، وجدت فيه كل ما كنت أحلم به، الرجل المثالي حقًا دون مبالغة، أتعلمين، لقد أبدلني بمال خير من مالي، ودار خير من داري عنده كل شيء، رجل الأزمات، رجل العطاء، وله من الأصدقاء واحدٌ، كمثلينا حرفيًا، لقد أحبني كثيرًا وأعطاني من لدنه كثيرًا وكثيرًا، غير أننا في الغد نلتقي، وسوف يكون بصحبة صديقه فأكرمي حبي له ولا تتركيني، فلابد أن تكوني مثله و تصطحبيني وعساك أن تفوتنك الفرصة

" تقول رهف أنها قبلت العرض "

في يوم مثل هذا، لابد أن تمشق رهف من قوامها مشقًا، وتهذب من حديثها أيما تهذيب، فلا تعجب عندما تجد أهل القاع يتسحلون النفاق، ولا تعجب حين يقولون عامل الشاذ فكريًا بشذوذيته، وعامل رجل الدين بمنطق لكنته، والمنحرف أخلاقيًا بانحرافه حرفيًا فأين يا ترى المبادئ ؟، وكيف تعجب و شعار المدينة

"عندنا العجب العجاب "

انتهت رهف من الزينة الشكلية، وشبَّعت ملابسها بقطرات العطر النافذة مع طلاء الوجه ببعض المساحيق، كما انتهت قرينتها، واتفقتا أن تلتقيان على إثر مهاتفة تهاتفوها.

وبعد سويعات، التقت رهف بصديقتها في مكان ما، على مقربة بموعد الملتقى، فقررا أن يترجلن قليلا قبل الوصول إلى مكان اللقيا، وعند اللقاء، شوهِد حُسن رهف البديع، فأسترحبن بالجميلات، في الغالب يكون رد السلام ضمنيًا من العاهات والتقاليد أكثر منه دينيًا، لذا قبلن التحيات ببزوغ ابتسامات التي أعقبها باليد ملامسات برهة ... !، فلقد بدأت ساعات السمر الغاليات، وفي الجلسة تكلمت رهف، يُستقبل حديثها بابتسامة حانية، فحديث يتلى، فعمق يبحث عن التفاصيل، فإمعان يخترق الأعين، فينشغل القلب والعقل، حتى وطدت العلاقات، أستمال الفريقين كل الميل، فالحب لا

يعرف ظروف أو شكليات، الحب ما هو إلا استحسان لطالع الوجه و قبول لمناطق القيل والقال، و يا سعد من كانت حبها منطقهُ فصيح، ووجهه صريح وكلامه مليح، فتكون كالتي تقف هنالك في خضم عمق الريح.

انتهت الجلسة التي استغرقت في الوقت أشواطًا وجولات، كان الرجل وصاحبه بحوزتهم سيارة فارهة، بمقدورك أن تبتاع عدد لا بأس به من الجنس اللاشيئي في مقابل ربع ثمن هذه السيارة فقط، ما أروعها وأجملها ساحرة الصنع والتركيب، مبارك على الأختين أن يجلسا في مقعدها الخلفي الخلاب، لا يشعرك بتعب أو عناء حتى وإن كانت الجلسة مديدة، نعم يا عزيزي إنها ال BMW التي تشتري البشر !، بعدما ركبت رهف وصديقتها، شرع القائد في التحرك بالسيارة من قمرة القيادة وقد قطع شوطٌ كبير في المسير، حتى توقف بالسيارة بجوار بعض الأكشاك المرتصفة، ذلك حتى تتم مراسم الوداع، قال أحدهم قاصدًا رهف :

- الوداع وما أجملكن.

ردت رهف من توها وقد غارت كلماتها :

- أودعناكم و ما أغناكم.

توقف "حُلم" عن الكتابة، وراح ينظر مليًا إلى تلك التي لثمت بكفيها دقائق وجهها، وبعد أن رمقها ببعض النظرات العميقة استدار بوجهه ذات اليمين حيث وقعت عيناه على ذلك الشيخ الطاعن، مما جعله يبتسم حال مطالعته ذا الوجه المفعم بالرضى، غزير النور، باثق الأمل والحياة، فكتب حلم في الحال :

" ذهبت رهف بصحبة صديقتها، كما ذهب الرجل وصديقه، ولكن هناك وقتًا لازال متبقيًا في دبر اليوم لم يُزهق بعد، هذا الوقت يُعلن فيه مذاعًا عن أذان الفجر في هذا الوقت مبكرًا يصحو الشيخ, وهو من أحد مشايخ اللاشيئيين قد دأب على ذلك العمل منذ أن تخرج من كلية اللاشيء للدراسات جامعة القاع، لا يبرح الشيخ حتى يوقظ سكان القاع بصوته العذب، هو ليس من أهل الفتوة والارتجال عند الخطاب

لا يُفضِل أيضًا الوقوف على المنابر، يقول هذا الطاعن أنه يخشى على قلبه الفِتَن، لذا تجده ورعًا، يسعى ليطلق الآذان بالتغني الرائق، مع قليل من إقراء العلم على مُريديه، وإمامًا للناس في الصلاة .

عاود "حلم" ليستوفي نظرته العميقة التي أطلق صراحها منذ ثوان فأصابت رهف، حتى كتب مجددًا :

" وفي هذا الوقت البعيد من الليل أيضًا، لا يترنح فيه إبليس أبدًا، فليس هناك غضاضة، من أن يلوك الرجل وصديقه سجائر التبغ الممزوجة بنبات الخشخاش بداخل السيارة الفارهة، سيجارة تلو الأخرى، وأنفاسٌ تُنفث بعدها إحتباس أنفاس و نبيذٌ يُرتشف من أجود الأنواع، فلاح طيف رهف ليوقف عقله ويشتت حبال فِكره حتى هيمن على بقاع صدره، فاشتعلت جذوات الحب المنطفئة في القلب، نظر إلى زجاجة الخمر ثم تجرع منها جرعة كبيره

بعوء .. بعوء .. بعوء .

وضع الزجاجة بجانبه و تزفر بوابل من الدخان الذي قد التهمه من سيجارته، المشتعلة والتي احترق نصفها بين شفتيه، رمق الطريق من نافذة السيارة حتى عادت رهف تهيمن على شرائح مخه وطبقات عقله من جديد .

في القاع، لا يستكين الشيخ الجليل، مقتصدًا، زاهدًا، ورعًا، لقد انقشعت الساعات التي يتوارى فيها فجر اليوم الجديد، أيها الشيخ، ألك حاجة من هذا المسجد العتيق ؟، أعلم أن جدرانه تئن في شكاتها من وجع الوحده، وأرضه تبكي من قلة وطأ الأرجل فوقها، وأسقفهِ تخفض من صواعد الزفرات و تكفكف جواري العبرات، فما أطيبك حين تقول :

" أفعل ما عليَّ و أتقي الله قدر المستطاع، فلعله يرحمنا و يهدي المدينة "

الله أكبر .. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمد رسول الله

وأشرقت الأرض بنور ربها في صباح نوره يشي بالخير، ولكن ! هل سبق تدوين مثل هذه الكلمات "خير" في قاموس لغة أهل القاع ؟، علها أن تكون أو لا تكون، فقط دعونا نكمل في صمت، لقد نفذ اليوم من اشراقات الصباح، وتتابعت ساعته الأولية لتعلن عن لقاءٍ جديد، قد أعد لرهف خصيصًا في ذلك المكان الذي التقوا فيه ليلة البارحة، وعند وصولها، لم يدعها تنبس بكلمة، قائلاً لها دون مقدمات :

- لقد أعدت لك أطيب ما تتمنين وأثمن ما تشتهين، فبكل الحب أهدي إليكم هديتي، وهي أقل من أن تهدى نظرًا لمقامقم الرفيع وجمالكم البديع، فالنيل يرنو صوب الفاتنات، والبحر لا يقبل دون السفن المشرعات والسماء يحلقن فوقها الطير يحملن الخير و حبٌ يقال بأصدق النيات ثم أن تأخذ هديتي فتاة هى "رهف" في ذاتها وسماتها الحانيات، فشهدت لها جوارحي بأنها ملكة في زمانها، وجميلة في عصر، قد قل فيه الجميلات .

ثم نظر إليها مبتسماً وأردف قائلًا :

- لقد ابتعت لكِ اسمًا لتصبجين من لا شيء إلى رهف .

رهف ليست ممن يستقبلن الأمور برصانة وهدوء، هي ممن يتهللن أساريرهن انبهارًا واندهاشًا، رقصت فرحًا وتغنت طربًا، ثم غمغمت في شوق رهيبٍ وقالت :

- أحببتك مرغمة .

- ألم أقل لك أن الحب ما هو إلا استحسان منطق القيل والقال ؟

راح يدنو منها وإليها حيث كانت جالسة، وذلك في مكان انتقلوا إليه هو وهى وثالثهما الهوى، قبض على يدها حتى غاصت أصابعه بين أناملها فانهالت من العشق المفقود، ظل يدنو إليها ممعنًا في تلك العينان الخضروان، دنا فتدلى ثم أدنى أكثر حتى اقترب منها مقربة شديدة استمال وترك لها قبلة .

[معذرة للقارئ لأني أربئ بقلمي عن بسط هذا الموضع أكثر من ذلك سأكتفي فقط بالإشارة ، فإن اللبيب بالإشارة يفهم، عسى أن تكون هنالك عفيفة تقرأ كتابي هذا فأخدش حيائها، أو شابٌ خلوق أخشى من ابتذاله, مستخدمًا بعض الكلمات النابية كما يفعل البعض ليثيروا الهرمونات الساكنة، أو حتى ليهطل عليهم سيل من النقد فيشتهرون، فلا نحن مدمنين

لتراب ماسٍ، أو قاطنين مدينة فاضلة، أو نستخدم أسماء لاتينيه نعبر بها عن الأرقام، أو حتى خزنه لأي ممر كان!، هنا في مدينة القاع ها نحن.]

توقف "حُلم" عن الكتابة في حين كان يومئ برأسه يمينا و يسارًا مستنكرًا يجتاحه إشفاقًا يئزه أزًا، أغلق الكتاب ولملم أشيائه ثم غادر الممر عند وصوله للمنزل إندفع نحو غرفة المكتبة، يبحث عن بعض المخطوطات التي تأتي بأخبار هذه المدينة، غير أنه شغل الحاسوب وراح يتقلب بين صفحات الانترنت بحثًا وتنقيبًا، حتى اشتد عليه السهاد ونام مكانه دون أن يدرك في أي الأوقات حدثت حالة الإغماء،لم يكذب خبر، فعند اليوم التالي ذهب إلى الممر ثانيًا دون أن يخبر أحدًا، ولكن هذه الفينه، اصطحب معه من الزاد ما يكفيه قرابة الشهر، وضع حلم الأمتعة بجانبه، ثم جلس في مركز الممر ولا يزال النفر على سابق عهدهم، مسح بعينه الحضور كما يفعل كل مرة، والذي جذب انتباهه في تلك المرة، ذلك الجالس وذاك السائر، نظر إلي كليهما كثيرًا ثم فكر عميقًا وصمت مليًا حتى تحركت يداه بالكتابة دون إرادة منه .

" الساعة الآن في القاع تدق التاسعة مساءً يُقال أن هذا التوقيت يحمل الكثير من المعاني لمن كان قاعي, أهل القاع ينعتونها بالساعة الذهبية، ففيها يخرج المتنطعين والمتسكعين، وتعج المقاهي بالجموع الغفيرة، ولست تدري هل تلك الجموع تجلس تنزهًا وترفيهًا بعد يوم شاق وعمل وعناء ؟، أم تعد هذه المقاهي بيتًا ومفرًا وملاذًا ؟

"مقهى المستنقعين".

أراها تحوي كثيرًا من أهل القاع، فهي لا تغلق أبوابها في وجه أحد، تجدها عطوفة خاصة على الخريجين، متسعة كاتساع بقعة القاع في قالب العالم، ولكن سيؤرقك هناك، كثرة النزاعات والمشاجرات أمام المقهى، يندلع العراك على أسباب واهية يلحنون له الشباب الضائع كان "الجالس" من بين الجالسين على المقهى يعاين المشاجرة اليومية، حاله يشي باليأس والبؤس، فواعجبًا أن ترى القوم فيها صرعًا، متبلدة المشاعر تجاه كل شيء، ترى ! أحدًا لم يقم من مجلسه ليفض هذا النزاع، وأحدًا لم ينكر أصلاً حتى بالقول :

" إنه الفقر يا عزيزي .. الفقر "

هذه المدينة فقيرة ، بل هي تحت مستويات الفقراء، وعندما ينقص المال يأخذ معه الخير، كل الخير، ظل "الجالس" يشاهد دون أن يتحرك له ساكنًا هو لا يريد أن يحرك أيما ساكن بداخله أصلاً، فما أصعب أن يموت بداخلك الإنسان، وظاهرك حياة هلامية مجردة، ستعيش حينها عُمر يُرثى له، فيا له من قاع أرعن .

قد ناهز "الجالس" الخامسة والعشرون من العمر، وصديقه المقرب هو"السائر"، "الجالس" بطبيعته هادئ، يستسلم سريعًا للواقع، يُفضل العزلة عند إحلال النوازل، الأنطواء يُشكل له أسلوب حياة، وقد أصبحت الدنيا في نظره على وتيرة واحدة، كل ما هو كأن على الارض أصبح يمثل له لا شيء، هو

ذاته أصبح لا شيء، يجلس مغرورق العين، حزين على ماض فات وحاضر لا يعلم ماهيته آت آت، لقد ترك كل شيء، حتى لم يعد يصفف من شعره، فتغلظ شاربه و كثت لحيتة، مسكينًا وحيدًا يجلس بمعزل من الناس وعن العالم، بعدما كان طموحه جاوز المدي، فكيف يا ترى نحتت مدينتي كيانك الهازل وكريرك المنعدم فأرجوك لا تبكي وتبكيني، كفكف مدامعك فإن الدمع يؤذينا وأفصح لنا عما تكتمه وأترك سفينتك ترسو في مراسينا أتشتكي من ألم أم وجع؟، أم أنين حب؟، أم التهموك مواطنينا ؟

منذ عام أو عامين تخرج "الجالس" وقد حصل على ليسانس تربية من أحد المجمعات الجامعية داخل القاع، فهذا هو اليوم الأول إبتداءً من التخرج أيام لا تنسى أو هكذا يقولون، أقولها أنا بكل ما تحملة الكلمة من مقاصد قد استعملت أو غمرت في ثنايا اللغة، لابد أن يكون هذا اليوم يوم عيد، غير أن العيد يصبح عيدان، إذا كان التخرج برفقته امتياز مع مرتبة الشرف، أصبح الجالس الآن من فئة المعيدين، انتابه شعور بفرحة عارمة، وإقبال على المستقبل بقلب جامح متسع لا يقبل تثبيطًا للعزائم فمن الآن وصاعدًا تنتهي أولى البدايات التي عقدت على سبيل إصابة الأهداف.

بعدما أنجزت أكثر المهام المضنيه، والتي تتبلور في محيط الدراسة هناك في الآفق البعيد يقبع حلمه، الذي ذوب الفؤاد "معيد تربوي في المجمع القاعي " يا له من أمل، جامعة القاع، عند كل صباح تقرع أبواقها لتعلن عن بدء يوم

جديد، في هذا الصباح أخذ الجالس يهندم من ملابسه وقد أتم تحضير الأوراق المرادة حتى يستطيع تقديمها ليلحق بالركب، انتهى وكان مهندمًا ووسيمًا، ترجل على السلم وشرع بفتح بوابة المنزل في شغف، حتى لقى عن توه صباحًا مشرقًا ونسائم عابقات وشمس تصافحه في حنو، أخذ نفسًا عميقًا مزج بسعادة لحظية، وقد أخرج هاتفه وفي ثوان، أضاء شاشتة ليمرر أصابعه تمريرا ليستقر على أيقونة حزم البيانات، ثم مختارًا تطبيق المراسلات، فمشتاق هو وما على العاشق من حرج، وراح يكتب .

- حبيبتي ، أتعلمين ! من الآن فصاعدًا تتغير حياتي وتتدبل بأكملها، لقد حصلت على درجات عليا، سأكون ثريًا في المستقبل ولن يمنعني عن حبك شيئًا، فبكل الشوق وبكل القوة أقف على ناصية الحلم مقاتلاً، أحبك أنت من أعماق قلبي أنا.

عند الإرسال ارتجفت أوصاله وارتعشت يداه وراح مترددًا يقول :

- أرسلها أم لا ؟..

التهم نفسًا عميقًا من الهواء الطلق، ثم مرر أصابعه فأغلق البيانات دون الإرسال .

هنا الجامعة، قف مستشرفًا لجلالها ودع قدميك يغوصان في دهاليز هذا الصرح العظيم.

قبض الجالس على أوراقه، وراح يعمل عقله محتفظًا بفكره، ويرى صوب عينه المستقبل القريب البعيد، فماذا ينتظر بعد ؟

- السلام عليكم أساتذة الجامعة الكرام, أنا الطالب فلان ابن فلان, طالب في كلية التربية، جئت إليكم لأضع بين يدي معاليكم أوراقي .

رد عليه الأستاذ دون تفكر :

- أوراق ماذا ؟

أجاب الجالس بكل أريحية :

- أوراق التخرج ودرجة النجاح، قاصدًا بهما عملاً داخل الحرم الجامعي، نظرًا لما أبرم في القانون القاعي، بأن أصحاب الدرجات العليا يمتازون عن أقرانهم .

- وفي أي الأقسام أنت؟ وعلى أي درجة حصلت ؟

- التاريخ قسمي، ولقد امتزت عن الأقران بالشرف .

نظر له الأستاذ في عجب و قال له :

- يبدو من لكنتك التهذب، وطالعك برئ وخلوق، وبين ثنايا حديثك الفصاحة، وخطابك يحمل في طياته الرصانة، ولكن إنا لسائلوك سؤال، لماذا التاريخ ؟

رد الجالس من توه مبتهجًا :

- درست التاريخ لأُقرأ المستقبل، فالكون له ثوابت لا تتبدل ولا تتغير فالنار مثلاً تحرق والماء تغرق، عند معرفة هذه المعلومة نتوخى الحذر فيما بعد فالعلم بالماضي وحيثياته ينبئك باستطلاعات المستقبل .

نظر إليه الأستاذ مليًا دون تعقيب، وقد داهمته نفسه بحديثًا قائلاً :

- كم من دارس التاريخ لا يعي ويتقن ركائز ما تلقنه، قادرًا على بثه بشكله الصحيح وفي الغالب يكون البعض حالمين حين يهدمون من حيث أرادوا البناء، ظنوها بسيطة ؟

تدارك الأستاذ حاله وأفاق من شرودة حتى بثق استرساله جمعت بين الفضول والتحدي.

- قل لي ممن نأخذه و كيف نقيده ؟

ابتسم "حُلم" على إثر هذا السؤال، وتذكر سخافات باهر، وتذكر أيضًا بعض الكتب التي مرت عليه في الآونة الأخيرة، منهم كتاب يُدعى "رحلة الوهم" أو"رحلة الذم" لا يتذكر بالتحديد رسمة الاسم ولكن كل ما يتذكره أن كاتب هذا الكتاب فلسفته تراكمت بعضها فوق بعض، فأنجمت على إثر ذلك روائح عطنة، كالتي تنفذ من إبط رجال "العصور الوسطى" من الذين ظنوا أن " العفن " يزيد من نمو الجلد، جهل فوق جهل ! فيستدل المزعوم بكتاب " تاريخ الرسل و الملوك " للإمام الطبري، على حوادث الفتنة بين الصحابة وحادثة الأفك، التي تجنا فيها المنافقون على"أم المؤمنين عائشة " إفكًا .

الجدير بالذكر أن القارئ البسيط أمثال باهر، حين يرى أسماء مثل هذه الكتب الأعلام، يشعر في الحال بالأمان من حيث تلقى المعلومة، والذي يخفى على جلّ من لا يعرف " تاريخ الطبري ،، أن هذا الكتاب يريد تنقيحًا كبيرًا وكما يقول الطبري نفسه في المقدمة، أنه لم يلتف وراء الرواة وأسانيدهم وترك هذه المهمة لمن يخلفه، ولكنه وضع أسماء الرواة كي ينقب وراءها المهتمون بالأمر، وفي قراءة بسيطة للكتاب قال د.راغب السرجاني :

" عند قرأتي لتاريخ الطبري عن الفتنة بين الصحابة بالتحديد، وجدت 112 رواية عن الفتنة، وحين وقفت على الأسانيد لم أجد سوى رواية واحدة صحيحة!"

وهذا ما نعنيه، أن أمر النقل عن أمهات الكتب، يستلزم إنصافًا للعلم قبل الأيدولوجيه!، حتى لا يختلط الحابل بالنابل، فعندما تقرأ " رحلة الوهم " تلمس ميولاً شيعيًا إن لم يكن المزعوم يمتطي مبدأ ينظر من خلاله بإلحاد جديد ذو لون متواري .

أفاق "حُلم" من شروده، ثم تدارك قلمه وأخذ يكتب :

" لقد انتهى الجالس من الرد على السؤال الذي وجه له، طارحًا بعض الاستدلالات من علم الحديث، ثم دعمها ببعض القواعد مثل "أن الحديث يؤخذ لابد أن يكون من رجل عدل ضابط عن مثله بغير شذوذ فيه أو علة قادحة " .

نظر إليه الأستاذ في حناء ثم قال في تودد :

- أنت على قدر لا بأس به من الثقافة، و هذا ما وفر لك التميز، و لكن بني هنا في القاع وصولك دون وسطاء يعد جريمة، لذا أشير عليك إشارة لا يطلعن عليها أحد، أمامك اختيارين : الأول هو أن تقف منتظرًا متلفحًا بالأمل، ملقى على قارعة الزمن بضع سنين، حتى يحين ترشيحك من قبل الجامعة وهذا شبه مستحيل، ولكوني لمست فيك الطموح، أقول لك الثانية، لابد أن تعمل على تحضير

الماجيستير ليتسنى لك الفرص الأكثر، ولذلك أترك الأوراق ها هنا، والقرار قرارك الآن.

طأطأ الجالس رأسه في خيبة أمل قد انقضت عليه ببراثنها الساحقة فاجتثت دماء التفاؤل وتناثرت شظياها المنهالة كالسيل فوق رؤوس الأشهاد، فتهلك حرث الوعي وتهشم نسل المستقبل، لقد هُزم الجالس أيما إنهزام كما لو كان في حرب مشتدة على أوجها، ترك الأوراق ورحل, وقد راق له أن يبحث وراء التكسب، كي يدخر كمّ "ملطوش" مع انتهاء كل شهر ليكمل بهم ليالي القهر، واحلم بدرجاتك العالية من جديد ولا بأس من أن تقتات، فلعلها تحنو عليك، فكم من علقم جرعت ؟، ولا تزال على دروب السعي مستميتًا، وتظل تمشي دون رفق حتى أنهكت الطرقات قدميك ولازال الطريق بعيدًا، مساكين أهل القاع، كم يعانون في قاعهم، فلابد أن يكون هنالك بصيصًا من الأمل يراهم، وصوتًا من الرحمة يناديهم، ولكن هناك في مدينة القاع من أراد أن يقتات فمئاله ممات، إما سجينًا وإما في البحر غريقًا، فليس شرطًا أن يكون الموت انسلاخ الروح من الجسد، ليصبح جيفة تبتلعها الرمال، قد تموت الروح والجسد لازال يعمل والقلب ينبض، فالموت أن تموت وأنت على قيد الحياة .

وقد انصهرت بحثًا عن عمل، من عند هذا الذي لا يريد إلا أن يمتص دمك، ولا جدوى لكثير من عروضهم المالية، وصولاً إلى ذاك الذي أتسع فاهُ عندما علم بأنك من أصحاب المراتب الدراسية متشدقًا بملئ فيه قائلاً:

- نحن لا نريد أي مستويات علمية، كل ما نريده عمال نظافة .

يبدو أن الطريق يمتد، ولم تعد الأقدام قادرة على المسير أكثر من ذلك فأرح حالك وهدء من روعك، نظر الجالس أمامه فوجد حديقة متسعه قد ألقاه القدر على مشارفها، قال في نفسه،لم يعد أمامك الآن سوى أن تسترخٍ قليلاً في هذه الحديقة الغنّاء، فكم مريح على النفس أن تتحلى بمشاهدة الورود المنسقة والأرض المرصعة بالخضار، على بعد ما هناك يأتي شاب مترجلاً على مرمى الأبصار، يقع هذا القادم تعرفه على الفور من شهيقه وزفيره، لقد عمد على ركل الحصى حال ممشاه، في الغالب هى حركات لا تعني شيء، ولكنها قد تسلب منك طاقتك السلبية، حين مسيره ترامت أنظاره فوقعت عيناه على الجالس، وكان الجالس في حالة سراح عميق، مغلق العينين و قد تجمعت الماء داخل مقلتيه، يتكأ على المقعد القابع في الحديقة، وفي رأسه تضارب فكرًا يخالط فكرًا يقابل فكرًا، نظر إليه السائر في غرابة حتى قال في نفسه مستنكرًا لحاله :

- من هذا المستلقي وما الذي ألقاه ؟

تقدم نحوه على عجالة ثم ربت على صدره أثناء ذلك

- أخينا، يا أخينا .

تنهد الجالس بعمق أكبر من ذلك السراح الذي اجتاحه، ثم أطلق بعض الكلمات و قد كان الكون في ناظريه مشوشًا من أثر الدموع، فقال في إرتياع :

- من .. من ؟

وراحت عين الجالس تتفتحا رويدًا رويدًا، فرمق المتحدث إليه ببعض النظرات ليعاين كنهه، هدأ قليلا ً ثم عاد متكئًا، محدجًا ببصره إلى الأمام لا يلتفت قيد ذرة بيد أنه اعتدل من جلسته السالفة ليس إلا، يبدو أن هنالك أفكارًا جاءت لتغور عليه، مستلة أسنة الأرق لتلتقم حيز الأنس بداخله، فتبًا للحاجة، وبعدًا للقاع، ظل السائر يُمعن النظر على ذي الوجه المتعب، فكل ردة فعل منه تكحي أخبارًا دوامس تشتهي نورًا، في روح مأسورةٍ اشتهت الحرية، تفرس السائر حالته دونما سؤال، فكلاهما من قاطني القاع، فاسترسل السائر قائلاً :

- أرى فيك الوجع من اليأس، ثم أشتم رحيق الأمل منجب الأفراح تربت يداك .

أراد الجالس أن يتلفظ فغمغم ولكن قاطعه السائر قائلاً :

- أتظن بأنك الحالة الوحيدة الذي آل بها الحال إلى ما أنت عليه الآن في هذا العالم المعتم ؟

ابتسم السائر ابتسامة خفيفة مزجت بالقهر على استرسال حديثه قائلاً:

- هذا هو حال مدينتا جمعاء، دع عنك ما قد فات وأصطحبني لأخرجنك من هذا البؤس القاتم .

ترجلا سويًا، الجالس والسائر، كانا يسيران بشيء من اللاإرادية في خضم حديثهما، قد تحل اللاإرادية محل الإدراك في أحيان كثيرة، عند الشغف، وقت التعب، حال العناء فلربما، ظلا يمشيان ويتبادلان الحديث، حتى تذكر الجالس حبيبته التي ودّ لو قال لها أحبك، فقط كلمة واحدة تشفيه، فهو يراها في كل وقت وحين، يرى ابتسامتها التي تلهب القلوب، يراها في كل الأماكن من حوله، كأنها غزت العالم بطيفها أو غزتها الأشياء بحيز فراغها، فليس أعقد على الإنسان من تطبيب الروح، ثم ما أشقاه ذاك الذي أدمن البشر، فجميعنا كما يقال مدمنين، قد ندمن أشياء، وقد ندمن أماكن، وليس أتعس من إدمان شخص ما، ظل يفكر فيها كثيرًا، حتى كادت جمجمته أن تلعن اليوم الذي تعاقدت معه فيه لتحتل أعلى بنيانه، فكابده الفكر فأعياه، وثقبه الشوق فكاد يصرخ، وقد انغمس وقتًا مديدًا أثناء مسيره مع السائر، ممعنًا في صورة ملائكية قد قام بحفظها على هاتفه آنفًا، فما فتيء خيلائها قابعًا في الذاكرة دون طالعها،

بينما مَلَّ السائر من شرود صاحبه، فحاول أن يستنكر عليه حتى دفعه الفضول ليختلس النظر على تلك الهيفاء التي أشردت له الذهن، فقال السائر على حين غرة:

- أتحبها ؟

نظر إليه الجالس قليلاً ورد السؤال بسؤال :

- وما أدراك ؟

- فقط كثرة شرودك.

رد الجالس وقد جمع في كلامه نوع من اللاوعي

- لست أدري أكنت أحبها حقًا أم هي بعضًا من العواطف الشاغرة بداخلي، ولكن ما أستطيع قوله، لا أتصور حياتي دونها، أشعر وكأنني بحاجة إليها دومًا، وما باليد حيلة غير تفحص هذه الصورة التي استظهرت كل ركن من أركانها.

ابتسم السائر ابتسامته الرقيقة المهذبة المنبثقة من تفاؤل عميق فقال :

- أنت لا تحبها .

- نعم ؟

- بل أنت عاشق يا صديقي .

وقفا سويًا على أبواب القاع، وقد وطأت أقدامهم أرض المدينة، هناك في القاع ما تشتهي الأقدام أن تغوص فيه، فما أجمل روائح البالوعات العطنة، روائح مستمدة من خير الطبيعة دون مبالغة، دخلا أكثر ولكن كلما تعمقت إلى قلب القاع تسمع، سباب وسباب، وسباب، هذا ليس سبابًا على الإطلاق، هذه هي لغة المخاطبة والتحدث والإقناع عند القوم !، لقد انتهيا بالفعل من خوض معركة المرور في القاع، ليصلوا إلى ذلك المكان الذي قصده السائر، في حين تزفر الجالس وقال وهو ممتعض :

- لقد انتهينا أخيرًا، يا أخي ما أقبح تلك المناظر، أنعي هم الدخول والخروج من القاع رغم أني من سكانه.

ضحك السائر على إثر الحديث، وقد وصلا عند باب شقة السائر، فقال في هدوء ورصانة :

- خلف هذا الباب الموصد، يوجد عالم قلما تشاهد نظيره .

نفسًا عميقًا درجت عليه العادات قبل الشروع في فتح الأبواب الموصدة،لم ينتظر السائر كثيرًا بعدما فُتح الباب، ولم يأخذ حتى بقواعد الروتين داعيًا الجالس أن يتفضل بالدخول حيث شقته !، ولكنه أعطى مُطلق الحرية لقدمه

اليمنى أن تدخل مدبرًا على إثر ذلك اليسرى، لتترجم خطوات حتى غاصت قدميه داخل الشقة وراح متبخرًا كالدخان، بينما كان الجالس عند الباب لا يكترث لصديقه الذي تبخر، هو لم يكن ليراقبه، بل لم يره أصلاً مما شاهده، رأى عالم غريب لا يعد عالماً، تضارب شعور رهيب في نفسه ناطحة اندهاشًا، اعتراتهم مقالات على لسانه، أن ما هذا ؟، أحق برب السماء ؟، اندفع الجالس مهرولاً نحو النوافذ في عجل، دفع عن توه كل نافذة، لتعلن الشمس عن اختراقها من ثقوب الفوهات التي أذنت لها بالاختراق، فانهالت منه ثورة من الدهشة العارمة، وقد فتح النوافذ ليتأكد من موقعه، نعم هو القاع، نعم هم أهل القاع، نعم هي الشوارع الضيقة والقمامة المبعثرة، والنساء اللواتي يرتدين ثيابًا أوشكت على الانفتاك، والفتيات اللائي ضخمن من حواجبهن، أختاه رفقًا بحواجبك البسيطة رحمك الله، نعم هو ذا السباب تلو السباب، نعم هؤلاء الشباب أيضًا من يلوك لفافات التبغ بالحشيش في وضح النهار ولا أي اندهاش، وهؤلاء المعاقرون للكيمياء، كل هذا لا يهم، الأهم أنهم يتكيفون، ولا شيء يؤرقهم ما دام ما يفعلونه درجت عليه العادة، فالمخدرات والخمور والعقاقير درجت ؟، إذا فهى عادة والعادة في القاع حلال، لأن أكثرهم يدينون بدين العادة.

قال الجالس في نفسه، أغلق، أغلق هذا الطوفان الهادر وهذه اللعنة الهاوية، فأغلق النوافذ، ثم عاود النظر إلى حيث بدأ، الشقة العجيبة، هل يعقل هذا؟،

أيعقل أن يوجد عالم مثل هذا داخل القاع ؟، العجيب أن الشقة ليس بها سوى سرير واحد للنوم، مع بعض الأكواب، حتى تلك الغُرف التي بالداخل أكاد جازمًا أنها فارغة

لماذا يتوارى السائر بداخلها، لست أدري، ولكن الأهم من ذلك لماذا تتوارى مثل هذه الشقق، إني لأشتم روائح عابقات ولا تزال قطرات عطرها النفاذ معلق بجدار أنفي،كم هو من موضع انتشاء، قد رأى الجالس صرحًا عظيمًا من الكتب، تعود هذه الكتب إلى أزمنة سحيقة، كتب من عبق التاريخ، منها الطبية، والهندسية والروايات والتاريخ والفلسفة والدين والسياسة، فثلاث مواضع قادرين على إنعاش نفسك، بحر وعزلة وكتابًا تقرأه، تلك هي الحرية المندثرة، جمال رباني فاتن، لا يصدق أن تكون هناك مكتبة داخل القاع بل لا يصدق أن يكون هناك شابًا عمل على اقتناء كنز مثل هذا أخذ الجالس كتابًا يتصفحه، أظنه للبحتري، نازعة الحيوان للجاحظ، بينما ورقات الأنثربولجي قفزت عليه فلا فارق بين عاشق الكتب، وعشق الكتاب للقارئ، فكلاهما ينجذبان لبعضهم البعض.

- أدهشتك أليس كذلك ؟

استدار الجالس للصوت القادم إليه من الخلف، لم يعقب وقد اكتفى بالنظر إلى السائر، في حين يتضح لمن يراه كم الكتب التي كانت بين يديه، مع بعض

الأوراق التي لم يطلع عليها حتى، إنه النهم، غير أنه لم يستطيع أن يتحكم في عضلة لسانه، يبدو أن دوافع التساؤل كانت أقوى من منطق الصمت

- أنت هنا مُقبر، لماذا لا تنطلق وعندك مثل هذا الكنز ؟

ابتسم السائر ثم نظر نحو منضدة متهالكة داخل الشقة، يقبع فوقها أوراق قد أكل عليها الزمان وشرب، بيد أن تلك الأوراق منسقة لا مبعثرة اندفع السائر نحوها وراح يتحدث في ممشاه، قائلاً بعض الأمور وكأنما يصحو بداخله الحد الذي لم نشاهده من ذي قبل :

- لقد قرأت كثيرًا وكتبت كثيرًا حتى بات الفؤاد متأففًا، حين أجد العالم يهرف بما لا يعرف، خائضين دون فهم، كأنما يمرقون كما يمرق السهم من الرمية، والناس باتت لا تفقه سوى ما تريد أن تفقهه من حيث الأبعاد التي راقت لها لا من حيث الدليل الساطع و الحجة البالغة، وعندما سعيت لنشر مذهبي رميت بالشتائم، لذلك سئمت البشر.

كان قد وصل عند المنضدة، التقف الأوراق التي جاثت فوق سطحها، وراح ينظفها من الأتربة التي تراكمت أعلاها فاستدار السائر على إثر سؤال باغته به الجالس :

- هل سبقت لك الدراسة الجامعية ؟

- نعم بالتأكيد قد سبق، درست الحقوق وأحببتها أيضًا .

نظر إليه الجالس مليًا، يريد أن يقرأ ما تبقى من فتات هذا العجيب، ثم نظر إلى تلك الأوراق التي بين كفيه، فسأله :

- ما هذا ؟

أجاب عليه السائر بكل الشوق، لكنه شوقًا انهالت منه رفاتًا من اليأس :

- هذا ما تمنيت بثه طيلة السنوات الماضية يا صديقي، لقد عكفت على كتابة تلك الصحف حتى أرهقت ذهني بحثًا وتنميقًا وتنقيحًا، وبروز معاني وتدقيق أوصاف وجزالة تركيب، هذه يا صديقي رسالة " الخلاصة "

أمسك الجالس بالأوراق، لتعلو منه ابتسامة إن دلت تدل على عدم الفهم لذلك الاسم أعلاه فقال :

- أنت من اخترت هذا الاسم ؟

- أيعجبك ؟

- ليس على التحديد، ولكني لا أفهم ماذا تعني من كلمة "الخلاصة"؟

- أعتقد أن هذا السؤال ليس لأحد الحق أن يجيبك عليه، سوى سطور رسالة

"الخلاصة" العالقة بين يديك .

أخذ السائر تلك الأوراق ونظر إليها قليلاً، ثم ألقى عليها قبلة حانية كالتي يتركها الأب على وجنتي طفلته الصغيرة، وضع الورق ثانيًا على المنضدة .

" اللامعقول في القاع أن تغمر أصناف هذه العقول المفعمة بالمعلومات لصالح من ؟ لست أدري !، غير أننا قد عاهدنا على القاع العنصرية، لقد توغلت العنصرية في كثير من الأشياء، هذه البيئة انعكست حرفيًا على سيكولوجية الجمهور مجتمعين، العنصرية في المأكل، وفي المشرب، هذا لا يعد حقدًا طبقيًا على الإطلاق، الواقع يقول أن أهل القاع لم يكونوا هكذا آنفًا، ما هم فيه الآن يعد عالماً موازيًا، فهل غارت غارة على القاع ؟، هل هي حرب ؟، نعم هى الحرب، ولكنها حربًا فكرية !، الحرب الغير مرئية، حروب أعمق من حرب التسلح والاقتتال، فحرب الاقتتال تكون أقل وطأة على الشعوب من الحرب الفكرية، لا سيما إذا كانت هذه الشعوب تتمتع بالجهل المدقع !

ولقد اغتصب القاع فكريًا، وتناثرت شظايا الغارة الملتهبة على الأذهان، دون أي تدافع أو ردع يُذكر، وللإنصاف، إلا من غير ثلة قليلة جدًا، تستطيع أن تقول من أمثال هذا "الثائر" معذرة أقصد السائر، قل لي بربك، هل يستقيم

بعد أن يصل السائر إلى ما أراد في مثل هذا الشح ؟، والشح له مقاصد كثيرة، شح الفهم، وضيق ذات اليد، أو الحاجة أو الفاقة، أو .. أو .. أو ،أيًا كان المعنى، فأهل القاع ذاتهم على يقين جارف، بأنه لن يستطيع الوصول إلى ما أراد، فمن نحن حتى نبحث في جعبتنا الاجتماعية عن حل للوصول ؟

حقوقي يضع كتبًا ويصيغ مقالات، و تربويًا يخاطب جمهورًا ويعطي محاضرات، ولكن لا ينقصهم سوى المال

المال .. المال .. المال، يا لها من كلمة أجحفت بنا الدهر، كل شيء بالمال، أو إن شئت قل كما يقول أحد أباطرة اليونان "كله بالفلوس"

طالت الجلسة بين الجالس والسائر حتى تجاوزت الحد المعقول، شابان يتبادلان الثقافة فيما بينهم كالعشاق في سلوهما، قض مضجع أحدهم حيث رأى بساط الوقت يتسلل من تحت قدميه لعلن عن اليقظة، هناك حياة بالخارج تنتظر من يحاكيها، هناك آمال متلاشية، طموحات حائرة, نفسيات على إثر ذلك حالمة، وأحلام تريد السعي والدرب على سلم الأسباب، فالاجتهاد للوصول لمعلومة، لا يختلف كثيرًا عن الاجتهاد نحو التكسب فكلاهما ينحصر في بوتقة الاجتهاد، أما الآن أريدك أن تترك كل ما يشغل يدك وعقلك، وتعال لنبدأ في البعد الثاني والأهم للحكاية .

قاما من مجلسهم، وقد احتلت البسمة ثغرهما، خطوا بعض الخطوات نحو الباب ثم تبادرا نزولاً على منعطفات السلم، استشرفوا الشارع بعد النزول، وقد استلقت الشمس على سريرها في الأفق البعيد وقفا كليهما على أعتاب الشوارع يرمقون المارة، ويشاهدون الطرقات التي تعج بالبشر، مع ضجيج أبواق السيارات، وصولاً إلى الأسواق المزدحمة والتي طفحت بالباعة الجائلين، بين كل ذلك أصوات عربات الأمن التي تجوب القاع، أثناء ممشاهم تقع أعينهم على مبنى عملاق، قابعًا عند أطراف المدينة بينه وبين المدينة عازل يثير الجدل، هذا المبنى لا يعبر إلا عن الهيبة ولا يترك غير أثر الرهبة مبنى أمني عملاق، على الجانب الأخر حيث لايزال السور العازل ممتد، ترى عقارات أخاذة فردوسيه الشكل يسكنها الاسميين، فالباشا فلان ابن للبك، والسنيوريته بنتا للهانم، قد لا يكترث أحدًا من ساكني القاع، ولكن ما يؤرق النفس ويؤجج المشاعر هؤلاء المتسولين والمشردين، من الذين اتخذوا من الأرصفة مسكنًا فهناك في القاع قواعد مريبة للعبة وهى، المال والحاجة والفاقة والحرمان والأحلام الضائعة، وسلم الوصول المهشم والأهداف المندثرة، فتلك هى اللعبة يا صديقي، والبحث وراء العمل ضمن اللعبة أيضًا، ولكن على أي الأعمال يحصل السائر وصديقه الجالس ؟، قد لا تهتم بنوع العمل ما دام المقابل المادي مجديًا ولكن ما بالك بحامل بضائع داخل السوق ؟؟ يقول السائر والجالس، ليس هناك أي موانع ما داما سويًا، حيث ينتظرهم هدف

كبير لطالما كان في حيز التمني، ظلا يعملان عملاً كادًا حتى أُنهكت الأجساد وتهالكت وقد ذابت الأرجل وذاب قوامها من كثرة الوقوف، وعانت السواعد والعواتق من أثر حمل الأقفاص، وتدور الأيام تلو الأيام، ولابد أن يصحو عند مقتبل كل فجر.

توقف"حُلم" عن الكتابة عندما كتب كلمة "فجر"، تذكر من توه الشيخ الطاعن نظر إلى الشيخ مليًا وراح يكتب على قيد نظراته:

"لقد أتى الفجر وأتت معه النفحات، فقد أقبل علينا ونحن بحاجة لتنهمر الرحمات

نظر الفجر للناس شامخًا وأطلق بعض العبارات قائلاً :

أنـــا الفـــجـر فرض من رب الأرض والسموات

أعـــطـــي ابـــن آدم ذمـــــــة كما نص بالرسالات

ولـــكـــن القـــوم هـــجروني واتـــبـــعوا لهوًا وملذات

فأنا الملاذ وأنا الحبيب وأنـــــا عـــين والواجبات

بأدائي تنقشـــع الـــهـــموم وتـــتـــــــبدد المهلكات

أنا الفجر أنا فرض من رب الأرض والسموات

وأشرقت الأرض بنور ربها .

هكذا كتب حلم بعدما أعاد ناظريه إلى الجالس والسائر وراح يكتب .

"بعد أن ينتهي الفجر الصادق، يهرول الجالس والسائر كي يبكرون، فالسوق يحب المبكرين، وعلى هذا الحال أفنوا الكثير من الأيام التي لم تكن بملكهم يومًا، فيظل الكبد والكمد أثناء العمل حتى يأتي وقت الظهيرة معلنًا عن موعد الغداء وهذه الأويقات ثمينة على العمال حيث الاستراحة من عناء العمل، وعند الراحة تبزغ روائح "الطعمية"، فالقضمة الواحدة قادرة على تهدأت حالك، اتكأ السائر إلى مقعد كان موضوع على أحد الأرصفة، بينما الجالس جاوره المجلس، فضحك السائر و هو ينظر إلى الجالس، وقال له بخيبة أمل مزجت بأمل غائب :

- هل يصدق أحداً، بأنك معيدًا بالكلية ؟

رد الجالس بنفس الوتيرة وبالضحكة ذاتها :

- وهل يعقل أن يكون هذا مكان لكاتب مثلك ؟

فضحكا سويًا وبدون مقدمات وبكل عفوية قالا :

- أنت في القاع يا صديقي .

ابتعد السائر قليلاً حيث راح يقصد بعض الحاجيات قبل أن تنتهي مراسم الراحة، ريثما جلس الجالس منفردًا، أخذه الشرود إلى طيف حبيبته التي عشقها من غرام واحد، ظل يفكر فيها حتى أوقد لهيب الذكرى الواقعة في مكان ما بعيدًا هناك داخل عقله الباطن، أخرج هاتفه، ثم أتى بصورتها التي حفظها وعلى إثر النظرات تزرف العبرات، ظل يمعن النظر فيها، ونظراته تحكي عن الهوى روايات، روايات يطيب للسمع أنغامها ولكنها لن تجدي مسرات، كم جميل ذا الوجه حين أراه مبتسمًا، وقد تعسر على اللقاء منتشيًا، فهل سمعتم ما ضج في القلب من أنات ؟، أما الهوى فللعشاق وما بت أنا غير فتات، في ذلك الحين عاد السائر، فألقى بالنظر على الجالس وكان شاردًا إلى الحد الذي يشي بالهيام، تقدم نحوه وعندما وصل أمامه قال له وكأنه يضمد جراحه:

- لا تحزن يا صديقي فهكذا الدنيا، فقط قف معي لنقاتل سويًا .

وعلى هذه الحالة صاروا مثلما تسير الأيام إنه التأقلم الخارق للمراد، مضت أشهر عديدة ولازال الصديقين تحت براثن يد السوق العجيب في أمر ذلك السوق، أنك تسمع أقذع الألفاظ حال البيع والشراء أتدري لماذا ؟، أنا لا أدري لماذا!، ولكن قد نري جميعًا عند حصاد مكنون ما يصاغ في نهاية مدينة القاع.

يقف السائر والجالس على حافة انتهاء السوق عقب كل رحيل يومي، ينظران إليه ويتذكرون حلو ساعاته وحنظل أيامه ولكن هذا قد لا يعنيهم كثيراً، الأهم من كل ذلك أن المال يكتسب ثم يدخر وهذا ما دفعهم على العمل داخل السوق، المال ليس إلا، وما سيدفعهم على العمل في اي مكان اخر ، المال هو المهم . وقد تحملوا اعباء

كثيرة داخل السوق و مشقة مضنيه ، بربك هل يستعصى عليهم التنظيف داخل المطاعم ؟؟

هناك في مدينة القاع، ترى الإقبال على أماكن الإطعام يأتي ثماره، وتحليل هذه الظاهرة يرجع إلى أن أهل المدينة جياع طوال الوقت، اليوم الأول والمكنسة والماء بالصابون تنظيف أرضٍ وغسيل أوانٍ دون هوادة، غير أن الاسميون لا يعجبهم العجب، حتى معدل ساعات العمل تفوق طاقتنا و الأجر بخس.

وقت العمل ؟، أتريد أن تعرف حقًا ساعات العمل ؟، حسنًا أسدي إليك خارطة الطريق، والتي لا ندري لها كنه، أهي خطة ممنهجة قد غارت على القاع، أم هو الغباء التوظيفي، على كلٍ هي حلقة مغلقة، عمل شاق طوال النهار وأجور زهيدة، وصولاً إلى السرير لتبكر في اليوم التالي، وعلى هذا المنوال يضيع جيل ! فأين الأوقات لصنع فكرة ما ؟، وأهل المدينة في خضم الطاحونة، وأين الأوقات لنشر فضيلة ما ؟، وأهل المدينة قد طفح بهم الكيل، ألم أقل لك مسبقًا أن الحروب الفكرية أخطر من الحروب التنظيمية ؟، فحرب الرصاص، عدوك أمامك رؤيً العين، لا يتواري وراء نصًا منمقًا

أو جملة رنامة، أو حديثًا معسولاً لا يعقبه ركاكه، لقد انتهى اليوم في سلام وعلى غراره دارت الأيام، وبعد فترة ليست بالقليلة قررا أن يحذو طريقًا أخر، غير طريق العمل عند الناس، أموالهم لم تكن بالكثيرة، ولكنها قد تلائم شابان مثلهم في هذا العمر، عملا على دراسة الجدوة والجدول، وما إن انتهيا قالا أن

السوق يعج بالباعة ولكنه أقرب الفرص للتكسب، فنحوا نحو التجارة بالسوق "عربة كبدة" داخل السوق .

جرت أيام كثيرة وبعد الحمد للرب قد استطاعا تغطية الخارج وتقييم العائد بالتأكيدلم يحصدوا رأس المال المدفوع كاملاً، ولكن خلال فترة وجيزة تنجز هذه المهمة إذا ما ساروا على ذات المستوى، على العربه يقف السائر مبتسمًا بجانبة الجالس منهمكًا في لف الأرغفة لا يتكلمون، لا يضيعون ثانية واحدة تذهب هبائًا، فليس هناك وقتًا رخيصًا حتى يعملان على إزهاقه أو استفزازه، السوق يكتظ بالبشر، يضج بالباعة، وقد سُد طريق السيارة، حالة سكون تامة أضفت على السوق اللهم إلا الكلمات التي تشي بالبيع والشراء، وفجأة...!، تكاثرت دبات الأقدام وعلت أصوات الهرع وارتفعت روائح الخوف، صوت صراخ النساء دوى كدوي الرعد الذي يهرعون منه، الكل يهرول، الجميع يقفز، أشلاء تراكمت، البضائع باتت ركامًا مطروحًا على الأرض تدهس بالأقدام، تتهافت الباعة على حمل بضعًا من حوائجهم حتى لا تصاب أو تدهس بأكملها، عربة الكبدة !، أين عربة الكبدة ؟، لقد أسفدها رجال أشغال الطريق، كما أسفد السوق بأكمله، ترتفع الصرخات ويعلو البكاء، فينبثق من بينهم قول قد انبعث من عمق سويداء القلب، قول يعبر عن كم البؤس والأسى

- "يااااا الله"

خليط من الأصوات الممزوجة بالحزن والخوف استرسلت على تتابع مفادها .

- "محلتيش غير الشغل ده حرام عليكم"
- "أروح فين ؟، أشحت ؟، أسرق؟ ، أبيع مخدرات؟"

وصار السوق كالصحراء الجرداء خاويًا، لا أحد ينبس، لقد غارت الكلمات وتقطعت الأحرف وثقلت الألسن وشلت الجوارح، فلم يعد هناك مجال حتى للتعبير الجسدي، كما الأصنام باتوا.

يقف الجالس وبجانبه يجلس السائر يتجرع علقمًا كأنه القات، على إثر هذه الحالة الخانقة، وبين كل هذا الكبت حالة الكسرة وعدم القدرة على شيء، وعقب كل ضيق، أجهش الجالس باكيًا ثم ترك السائر على حافة الرصيف ورحل بعيدًا إلى أين يذهب لست أدري، هو نفسه لا يعرف إلى أين يذهب، لم يكترث السائر لأمره البتة فلقد غارت الكلمات، ظل يمشي دون إرادة وحديث نفسه جاء ليقتلع راحته الذائبة في الأصل، ها أنت وتلوكك الأيام وتنمق لفافتك الأوهام، ثم يوقدونك بمشعلة الأحلام، حتى يتزفرونك على الأنغام، لقد سئمت هذه الحياة، لقد سئمت هذا القاع فكل شيء قد راح .

هنا القاع...

على أعتابه يقف الجالس وقد هَزم العناء قلبه، كل شيء مات وكل أمل قُتل كل حلم استفاق من سباته الحاني، تملك منه طبعه الهادئ واستسلامه السريع للنوازل، عزلته القاتمة، الأنطواء وأسلوبه في الحياة، كل الألحان باتت تسمع على وتيرة واحدة، كل الأصوات صارت كنعيق واحد، أصيح والسيف، أصيح والسيف مزروع بخاصرتي.

أغلق عينيك أيها القارئ قليلاً، الآن افتحها ثانيًا .

بعد مرور ما يزيد عن عام ونصف، يخرج الجالس من منزله وقد شحبت ملامحه وتشوشت تفاصيله وبهت طالعه، لا ينظر لأحد، لا يكلم أحد، راح يقصد المقهى الذي صار له ملاذًا وبيتًا، في ليلة صقيعة دامسة وفي تمام التاسعة مساءًا ذلك التوقيت الذهبي حمل كثير من المعاني لمن كان قاعي، توقيت المتنطعين والمتسكعين، مقهى المستنقعين (أيـــواااا جـــــــاي)

يجلس الجالس على المقهى مغرورقة عيناه، وقد نمت لحيته وكثت، لم يكن ليدخن من ذي قبل، في السنة الماضية استحسن لفافات التبغ، مشاعره باتت جامدة لا يكترث لأحد، يعاين في جلسته المشاجرة اليومية وحين كان يأكله الهم نظر ذات اليمين قليلاً فوقعت أنظاره على صديقه السائر، يتقدم نحوه في خشوع ويزدرد ريقه في قهر، يجر إليه أرجله على مضض !، وفجأة...! إذ بصرخة يبثقها السائر قد أسمعت أهل القبور

- آاااااااااه

تأوه السائر من أعماقه الدفينة على إثر ضربة عنيفة، من قبضة يد سددت له في منتصف الأنف، وذلك حال إنقضاض رجال الأمن عليه !، أفاق من ترنح الضربة شيئًا بسيطًا ثم أخذوه نحو عربات الأمن في نقص له، تصارعت أنفاسه كالثيران، وضربات قلبه كادت تنفجر منها الأوردة، أهو الخوف ؟؟،

أمسكوه من أكتاف الإزار الذي كان يرتدية، حتى أوصلوه إلى العربة مع جرعة من الشتائم النابية التي قيلت فيه،

أركبوه ثم أقعدوه على المقعد الخشبي القابع خلفًا، لا تزال أعين الجالس تحدج النظر بصديقها، ولكن الجالس لم يفعل أي ردة فعل تذكر، إلتهم الجالس أخر أنفاس السيجارة التي احترقت عن كاملها بين فاهه، ثم نفث دخانها بمرارة قاتمة، وانقلب يقهقة دون سبب مفهوم !، ارتفعت أصداء ضحكاته إلى المدى، يضحك المسكين وعيناه تزرفان دمعًا، يضحك ويقهقة وتنهال منه المدامع، كم أنت قاسية أيتها العبرات وكم هي فريدة من نوعها تلك الحالة، أن تمزج بين الضحك الصاخب و الدموع العارمة، هل سبقت لك مثل هذه التجربة ؟

تحركت عربات الأمن قاصدين الرحيل مع أصوات من أجراسها المعهودة، راحت السيارات يختفي أثرها وينحسر صداها، وأخذت ضحكات الجالس تهدأ شيئًا فشيئًا، مصدرة صوتًا من الغمغمة والدمدمة، حتى اختفت السيارات تمامًا، وانتهت معها ضحكات الجالس أيضًا، ما بك إذا اقتفينا أثر السائر ؟، ممتعة تلك اللعبة أليس كذلك؟

لديه في العشرينات بعض الأحلام المتلاشية، ومجموعة من الصدمات المتتابعة ، وعدد لا بأس به من أنماط اليأس، مع إجحاف وتعسف بشكل مستمر فما الذي تنتظره من ردود أفعال شاب مثل هذا ؟، من حوال عام ونصف وعندما استباحت أحلامه وفسدت عربة الكبدة، هَمَّ السائر واقفًا من جلسته، يلملم شتات روحه التي تبعثرت، وقد داهمته أحاديث قد أشعلت كل جذوة متوهجة في صدره، لتلتهم في طريقها أعماقًا ونياطًا في سويداء القلب، فهل نجد من يعزي ذلك العشريناتي بسجية يثريها على جراحه ؟، أو يكون له كالدعامة منافحًا عنه ضد آهاته وأناته ؟

بين الطرقات داخل السوق يخطو السائر بعض الخطوات المنكسرة المريرة،والناس على إثر هذه الحالة قد ضاق بهم زرعًا، فضيق الحال جعل الناس صُمّ بكم عمي فهم لا يعقلون، النظرات شاخصة والكلمات غائرة، راح يخطو ثم يخطو مترنحًا، يرى رفات حياته ويعاين اقتلاع روحه، سيفان من النار يختصمان في الكبد، وما أثمرت شيئًا كتاباتي !، نعم كتبت "الخلاصة" لكن دون جدوى، إذًا هو الاستقطاب والحاجة مقبعة على أسنة الرماح، فيستقطب الغني الفقير، ثم يأتي أغنى يستقطب الغني، ثم تأتي المدينة تستقطب السادة أجميعن، ومن ثم تبتلعهم أمريكا مجتمعين !، وأحسن الله عزائي و عزائك أيها القارئ، انتهت حدود السوق، لقد ابتعد السائر عنه تمامًا، صار كالقنبلة الموقوتة يعترية شذوذ لا يعقبة استقامة، فقد ضاع كل شيء، فأين البديل ؟، فلا بديل مع واقع مثل هذا، ومع أيام لاذعة مثل هذه سوى النوم، النوم بكثرة كالبلهاء، وفي الليل يصحو بعدما رجع إلى البيت وتمتع بسبات عميق شاح بالغطاء الذي غط به بعيدًا، ثم هَمَّ واقفًا قاصدًا شَربة ماء ليرتع، ارتشف من الكوب بعض القطرات واتجه بعد ذلك إلى الحمام ليستحم، تسللت المياه بين مسامات جلده الذي أخشوشن كاخشوشان رجل ناهز الخمسين من عمرة، ارتدى ملابسه في هدوء موجع، ثم ترجل نازلاً إلى الشارع وغادر القاع، إلى أين يقصد ؟، وأي مسار يسلك ؟، قد تكون شلة الجامعة .

وصل عند سيارات الأجرة، فركب حتى جلس في المقعد الخلفي، يحدق في الطريق الذي يهرول معهم على التوازي، فكم عشقناها من لعبة، أن تتحدى فضولك وتحصي أعداد أعمدة الكهرباء المرتصفة، شغف طفولي، ارتفع صوت المذياع داخل العربة، مُصدرًا معه كلمات يجيد مدندنها ويتقن عُرب التغني وحنان اللحن

****

"نفيت واستوطن الأغراب في بلدي . ودمروا كل أشيائي الحبيباتِ"

****

جاءت الأقدار تتلاعب بمشاعرك وتهشم كيانك وتستبيح روحك، ولا تزال ملقى فوق مقعد خلفي لا يراه أحد من الأعيان، هذا المقعد الذي شكل أنواع وأجناس من أبناء الجنس اللاشيئي، سامحك الله أيها السائق بالله أنزلني، ظل واقفًا قرابة العشر دقائق، فارتفع صوت هاتفه مستقبلاً مهاتفة من أحد أفراد شلة الجامعة كما اتفقا، ودون مقدمات ضغط زر الإجابة ثم شرع في الرد :

- لقد وصلت بالفعل، أين هذه المقهى الذي تتجمعون فيه ؟

تمكن السائر من الوصول، في مقهى ليست من المقاهي الشعبية والتي قد تحوي أصنافًا مقززة من البشر، ولا هي من المستويات العالية لأصحاب الأسماء مثلا، ولكنها وسط بين هذا وذاك، تستطيع أن تقول أنها مقهى الشباب الخريج، أو كما ينعتونها بمقهى المشاغبون والثوار، وعند دخوله ألقى السلام عليهم قائلاً:

- أهلاً يا رجال، كيف حالكم ؟، قسمًا لقد تاق الفؤاد لرؤياكم.

قوبل بالعناق وتهللت الوجوه لرؤياه، أحدًا من الجلوس اندفع صوبه ليحتل مجلسًا بجواره، حتى قال له في اهتمام يميل إلى الحب :

- ما زالت القهوة معشوقتك يا صديقي؟، أتذكر مدرج قاعة الحقوق ؟ والقهوة التي كانت تبتاع لنا خصيصًا ؟

ابتسم السائر ابتسامة مقتولة مع قول بات مخنوقًا في حلقة ليقل :

- بالتأكيد، وهل تُنسى مثل هذه الأيام ؟

ثم أردف السائر :

- بالمناسبة عندي سؤال خانق، ساورني في الأيام الماضية، لماذا درسنا الحقوق ؟

تحمس أحدهم ليرد، ولكن سبقه آخر بقول يحمل في طياته المزاح :

- أتريد أن تعيدنا إلى مناقشات الماضي في الكلية إذًا ؟

نظر إليه السائر باسمًا ولم يعقب، بيد أن الصوت الذي كان متحمسًا في بادئ الأمر، راح يمتطي تنظيرًا يتوائم مع حديثه قائلاً :

- الحقوق، لأن البشرية جمعاء تسعى بكل جهدها إلى التناحر والتضارب، منشبين عن ذلك حروبٌ ضارية، والتي تقتلع بكلاليبها الساحقة كل معاني الإنسانية، فنضع على إثر ذلك قوانين تقيد هذه النفسيات العنفوانية .

نظر السائر للمتحدث مليًا، فعقب على حديثه قائلاً :

- قولك صحيح لا غبار عليه، ولكنه يحمل نوع من أنواع عدم الإدراك بشمولية الأمر، فهذه القوانين تحجب التناشب وقد تطبق حقًا، ولكن ماذا عن الذين لا ينالهم طائلة القانون ؟، إذ هم من يصيغونه وفق أرائهم ثم يقومون بتعديله حسبما اتفق مع مصالحهم العليا .

ثم استأنف السائر قائلاً :

- ولكني لم أحظ بشرف معرفتك من ذي قبل، يبدو أنك لست من دفعتنا، هذا صحيح؟

رد أحد الأصدقاء على سؤال السائر :

- فعلاً، هو في أولى سنين الحقوق أو كما يقولون إنها.

ارتشف السائر من فنجان قهوته الذي وضع أمامه على الطاولة، حتى أصدر بعض الحركات التي تشير بمراده في الرحيل، يبدو أن الوقت قد تأخر، تعلل بالمشاغل ثم رحل، غير أنه ترك الأبواب مواربة لتجديد الجلسة لاحقاً، كان السائر منهكًا إلى الحد الذي لا حد له وهذا ما جعله يعتذر عن الجلسة، راح يقصد المنزل طالبًا أقساط من الراحة المزجاة، وعند وصوله المنزل وقعت عيناه على المكتبة فأعرض عنها، ثم جال ببصره فرمق تلك المنضدة المتهالكة والأوراق المحملة بالأتربة، رسالة "الخلاصة" الملقاة هناك دون اهتمام، ودون أن يكترث لشيء، وبنوع من اللامبالاة، وبغير أدنى اهتمام، وبقلب بارد وأعصاب هادئة، ذهب إلى النوم، وتلك هي النشوة .

صباح اليوم التالي، وبعد النوم العميق أشاح بالغطاء وهم واقفًا كل ما يهمه الآن،كيف ينتقم ؟!، بعد الاستحمام الذي استغرق معه ساعة من الزمن أو يزيد، خرج مسرعًا ليفتح النوافذ كي يحظى باستنشاق بعض النسائم، وبالفعل قد انتهى أيضًا من تحضير الفطور ولابد من فنجان القهوة ليكتمل الصباح وينتعش العقل،شهقات ...!، يبدو أن القهوة أوشكت على الغليان فوق النار، رغم ذلك يعشقها باردة، ولا نعلم لهذا الأمر سبب، أهو إدمان لمذاقها الحنظلي ؟، أم سهو ؟، أم ماذا لا أعلم، لا يهم كل ذلك، الأهم أن السائر بات متأهبًا تمام التأهب حتى يشرع في وضع الخطة، لابد أن يحكمها أيما إحكام، صور من المنطق الذي يضاهي نسق الساسة المحنكين، كل ما يحتاجه الآن بعض الهدوء، ومجموعة من أقلام الرصاص، وعدد لا بأس به من الأوراق الفارغة، ولكن هناك معضلة ستواجهه، أن هذه الخطة لن يتقبلها المجتمع وستلقى هجومًا أظن لأنها ليست مألوفة على عقولهم ؟، ولما لا ؟، فكرة غير مألوفة ولكنها لم تخرج عن إطار المضمون، والمضمون هنا لا يختلف عليه أحدًا صدقني، نعم إنه المال، بالمال تستطيع أن تفعل كل شيء، فلا تصدق من يقول لك أن المال ليس كل شيء، فبالمال تشتري الحب، وكلما كثرت خزائنك تيسرت معك الأشياء، ولكن لا تنسى بأنك ستزداد جموحًا بمعدل ازدياد أرقامك البنكية، ففي القاع ترى آدميين البنيان حيوانات العقول والثقافة، فلا تعجب من نفسك إذا ما صرت حيوانًا متغطرسًا يومًا من الأيام.

ستكون، ستكون، لا تفكر في هذا الأمر كثيرًا، ولا تغتر بسكونك الحالي، أنت فقط لم تقع بعد تحت وطأة حكم القاع يا عزيزي.!

لقد انتهى السائر من وضع الخطة وقد أحكمها،لم يعد أمامه الآن سوى الشلة، مرت سويعات قليلة حتى لاحت الشمس في الأفق لتعلن السماء عن إحلال موعد الظهيرة، تقدم السائر خطوات نحو النافذة، ينظر إلى شوارع المدينة، فانتابه حزن سحيق وراح يقول في نفسه بعضًا من الأوصاف الانهزامية .

"يا قيلولة الأيام ، ويا روح السلام، أنتم في قاع به منافذ الإعدام موضوعة على الدوام

بكل اهتمام لم يبقى في نظري غير روث منكِ، على جرعة إدعاء وأوهام، يا بلد الكلام، يا شق الظلام، يا قاطعة وتين الأحلام، لقد صرتِ هلام دام وفتات وركام، آهٍ آهٍ يا قيلولة الأيام. "

وصل السائر مقهى الخريجين بعد أن قصدها من لحظات :

- أهلاً يا شباب.
- مرحبًا، لقد انتظرناك كما أردت أن نكون .
- جيد, ولترتقبوا ريب المنون .

- ولكن ما حملك على جمعنا؟

- الكثير والكثير .

- ألا نعاين القليل منه ؟

- ليس متاحًا الآن .

- ولكن متى ؟

- عاجلاً غير آجل، أما الآن لا نريد إلا شيء واحد .

- ألا وهو ؟

- الحشيش.

- الحشيش ؟

- هو ذو العين والعلة، فلتجرعونا إذن قبل أن نخوض في أي حديث.

ذهبوا جميعًا إلى شقة هناك في عمق المساكن لا تبتعد كثيرًا عن مقهاهم، كانت هذه الشقة ترتقب في شغف مثل هذه الجلسات من حين لآخر، أعمدة الشقة تموج موج البحار على أوتار دخان المخدرات، إذا وطأتها قدميك، لحسبتها كهف من كهوف أساطير العهد القديم, لا تعكس غير روح

السوء, كل ما فيها مبعثر مثل الشظايا لا روح فيها تذكر على سبيل نظافة, جلس الصحب يتناوبون لف السجائر ويتبادلون الشرب, يرتفع صوت القداحه "تـــــشـــــــك .. تـــــــشـــــــك"

اللفافة الأولى أُجرعت للسائر, أخذ نفسًا عميقًا كاد أن يختلج الأحشاء نفث زفيرًا رهيبًا كاد أن يعرج إلى السماء حتى قال :

- أتعلمون ؟، هذه المدينة لقيت مصرعها من عهد قريب، عند مطلع القرن الماضي تقريبًا، و ما آلت إليه المدينة من جوع وفقر ليس وليد اليوم، بل له جذور رسخت من ذي قبل, وذلك ابتداءً من الحكم الإقطاعي، وصولاً إلى الاشتراكية و القومية التي أقحمت فيها المدينة غصبًا وقهرًا, عندما تفاقمت الأحوال الإقطاعية وضاق بالناس حتى كادوا أن ينفجروا لاحت عليهم موجة متلاشية، قد ادعت القضاء على الإقطاع, وبعد أن رحل الإقطاع, مرت السنون وتحكمت الأزمات الاقتصادية من المدينة ونظرًا للفساد الإدراي لم تحل الأزمات، والحاجة جعلت من الناس عناصر قابلة للاشتعال إن لم تكن الانفجار وفي هذا التوقيت, كان هناك عائلتين من أكبر عائلات المدينة على الإطلاق أغناهم مالًا، وأعظمهم شرفًا ونسبًا وأوسعهم نفوذًا وسلطانًا, عائلة من الاثنين كانت لها جذور ممتدة بذلك الإقطاع، حيث أنهم من الأحفاد، هذه العائلة استطاعت أن تحتكر

باع كبير في سوق السيارات التي في البلدة صاحبة الرأس مالية العالمية, وعندما ضاق حال المدينة أكثر فأكثر حتى لجئ القاع أسياده إلى الاقتراض أو ما شابه المعونة, وكان كبير هذه العائلة هو الوسيط، بين مدينة القاع وبين مدينة الرأس مالية نظرًا لما بينهم من علاقات، ومن هنا بدأ التدخل الفعلي في شئون القاع الداخلية من قبل المدينة الرأس مالية غير أنه إلى الآن لا يزال الإقطاع مستمرًا ولكن تحت شعار الاحتكار, ثم تقيس على ذلك أن هذا من أعظم الركائز التي تسببت في الفقر إذ أن البشوات هم القابضون على المال وكفى .

تـــــشـــــــك، تـــــــشـــــــــك, اللفافة الثانية, نفس عميق كاد أن يختلج الأحشاء, زفير رهيب كاد أن يعرج إلى السماء :

- أتعلمون ؟, لما علمت المدن الاستشراقية ذلك، وكانت لها أجندات تسعى بقصارى جهدها لتنفيذها, غير أنهم في الوقت ذاته أرادوا إذلال المدينة عسكريًا, ولكنهم علموا بأن أهل القاع يتحدون حال الحروب، حيث يلتجئون

إلى الله رافعين أكف الضراعة يريدوها جهادًا, فهو ذروة السنام, بدى لهم أن التناشب زاهق, فآثروا الزحف الوزاري، قاصدين وزارة المعارف والتي وصل

لسدة عروشها في ذلك الحين "دان لوب", و هو الذي وضع المناهج التعليمية والتي بين أيدينا حتى الآن،

ليس هذا وحسب, كان يدعى "اللورد كرومر" عمل على تشيد مدارس، جل همها أن تبني جيلاً بفكر غربي موازيًا لجيل الأزهر, وتداولت الأيام حتى صار بالفعل، خريج فكتوريا كولج هم من لهم الأولوية، وسادت لغة أهل الأستشراق وسطع نجمها، وتقهقرت لغة المدينة, ومن هنا قتلت الهوية .

تـــشـــك .. تـــشـــك اللفافة الثالثة, نحن من يلهث وراء الوهم عن كثب وإمعان, عاصفة هوجاء جاءت فأخفقت قلب السائر، يبدو أن هذا المخدر جعله, يهذي, ولقد نام الجميع على إثر ذلك الهذيان, ولكن ما الخطة ؟, يا ويح السائر إذ لم ينتقم لنفسه ولجيله, قال في نفسه "أأتركهم في سباتهم خالدون ؟ أم ماذا !"

تدارك عقله ثم صرخ فيهم، افيقوا أيها الحمقى, لقد حان موعد الانتقام .

****

اجتمع السائر بالشلة, وظل يخطب فيهم حتى يجد مدخلاً لما أراد قوله ومن ثم تنفيذه, لم يعد هناك وقتًا متبقيًا سوى بعض الساعات القلائل، حقيق أن يستغلها, فعاملان في المدينة خليق بك احتوائهما, الوقت والمال, استرسل السائر في حديثه حتى دخل في عمق الموضوع, حريٌ بنا ألا نبحث عن متاع زهيد أو مال قليل بعد اليوم، يوجد هناك بعض البشوات القابضين على أموال المدينة دون رحمة أو شفقة، "محسن بك" ملك العملات وقرينه "مدحت بك" ملك التجارة, وعلى شاكلتهم يقع "توفيق بك" ملك السيارات, ويصنف "علاء بك" رأس حربتهم حيث شركة الحراسة التابعة له, ويعد "شوكت باشا" أصغرهم, أعتقد أنه أقواهم على الإطلاق نظرًا للأسماء التي يحتكرها، أظن أن معاييرهم القياسية قد خانتهم هذه الفينة, علينا أن نستغل ما بينهم من

تناحر، فبالرغم من كل هذا الثراء الفاحش، تجدهم يقتفون أثر العملات الأجنبية فيلهثون وراءها لهثًا، فترتب على ذلك, اضمحلال عملة المدينة، يسود المدينة عملة تدعى "الكوبار", والملوك يتعاملون "بالأرينا" العالمية, قيمة الأرينا مقابل الكوبار،كقيمة الدولار أمام الجنيه سابقًا، أي يتراوح مقابل عدد كل واحد أرينا خمسة وعشرون كوبارًا

الخطة كالآتي...

الهدف الأول هو "مدحت باشا", مدحت عملاق التجارة، قد علمنا أنه مُولع بكسب المال مطلقًا، يتهافت على النقود تهافت الظمآن على الماء فوق صحراء جرداء في فلاه، فصار كالحجر على رقعة الشطرنج، عامل واحد فقط يقوى على حراكه, والأرينا هي سر اللعبة, اثنان منا سيذهبان إليه، فيطرحوا عليه عرضًا يفرح به هو وأمثاله, أن هناك صفقة من الأسماء بأقل من سعر السوق المحلية، ولكن لابد أن يتم الشراء عن طريق عملة "الأرينا" لأن الكوبار أصبح كورق الصحف، في ذات الوقت سيذهب اثنين آخريين إلى محسن عملاق العملات، فهو ممن يلهثون أيضًا وراء ربح عالٍ دون عناء غير مكترث للسبل، فهؤلاء لا يعنيهم غير ازدياد أرقام خزائنهم البنكية، تذهبون إليه ثم تقولون له، نريد شراء مقدار ثلاثة ملايين من "الأرينا"، ولسوف نشتري بسعر أعلى قيمة مضافة فوق الأسعار المتداولة في السوق السوداء بثلاثة كوبارًا على الأرينا الواحدة، أقسم لكم أنه سينهال بالقبلات على أيديكم إن لم تكن

أرجلكم، لعين أعرفه، ولكي تضفون رونق الأمان وبث روح الثقة تضعون شرطًا جزائيًا، عبارة عن مائة ألف أرينا على من ينقض الوعد أو ينكثه، عندما ينتهى الاثنان اللذان كانا في ضيافة محسن ملك العملات، يذهبان مباشرةً إلى مدحت ملك التجارة في هذا التوقيت ستجدونه منهكًا من أثر البحث تحيطه هالة من الشغف بأن يصل إلى أكثر شخصًا جادًا وأمينًا، يحول له العملة من " الكوبار إلى أرينا" وحبذا إذا كان السعر زهيد، قولا له بأنكما على أتم الأستعداد لبيع أرينا بالكمية التي تريدها، غير أنه ما دفعنا إليك ليس إلا ذلك الاسم العظيم "مدحت بك"، وكما نعلم أنك تاجرًا ومستوردًا عملاقًا، في تلك اللحظة بعد مقدمتكم هذه التي استهليتم بها الحوار، لسوف تتلقون منه حديث من فئة "هاتوا ما عندكم"، لتكن ردود أفعالكم رصينة وهادئة على الدوام، ومنكم واحد فقط هو من يدلي بدلوه، سوف يعطي له السعر المتداولة في الأسواق، ثم يبسط له في الحديث ويعزز، ساعات المفاوضات إلى أن يصل إلى الامتقاع والتأفف، في هذا الحين تلتهم نفسًا عميقًا وتسترخي قليلاً إلى مقعدك، وإن كان أمامك مشروبًا ارتشف منه رشفة بالكاد يبتل منها الحلق، وقل له :

- عندي لك عرضًا نهائيًا، ولن يحتمل التفاوض بشكل قطعي، نبيع لك أقل منالسوق السوداء بثلاث كوبارًا، أي إذا كانت الأرينا الواحدة تساوي مقدار خمسة وعشرون كوبارًا، نبيع نحن باثنان وعشرون،

على أن تشتري ثلاثة ملايين دفعة واحدة، غير أن هناك تعاقد على شرط جزائي، يضمن حقوقنا وحقك، هذا إذا حدث اختلاف، خمسون ألف أرينا على من ينكث العهد.

ثم أن الذين كانوا في ضيافة مدحت عند أول تعاقد بينهم على الأسماء حيث عرضهم سلعة الأسماء بثمن بخس، يذهبان من فورهم إلى شوكت باشا محتكر الأسماء، أحيطكم علمًا بأن هذا الرجل عاشق للجدية، لذا كونا معه في تمام الحرص، دققوا في قولكم دون لجاجة وجدال، غير أنه يحب المديح، لذا فخموا له في ذاته، وعظموا من أمره وكيانه، وبكل أريحية أشرعوا في شرح صفقتكم التي أنتم بصددها معه، والتي تتبلور في شراء صفقة كبيرة من الأسماء تتراوح قيمتها المالية إلى حد الثلاثة ملايين أرينا، ثم قولا له بأنكما على علم بأن التعاقد على صفقة مثل هذه ليست من الأمور البسيطة، حيث أن إحضار عدد من الأسماء بهذا الكم يمثل عبئًا كبيرًا ويحتاج وقتًا وفيرًا، غير أنه يحتاج أيضًا إلى فك ودائع خزائنية، وأن الخزائن تفك ودائعها بأموالٍ طائلة، ولهذا السبب سوف نشتري بسعر أعلى من السوق المحلي بمقدار ثلاثة أرينا قيمة مضافة على الاسم الواحد، على أن نبتاع بالرقم المتقدم طرحه، ومن ثم نضفي ثوب الأمان ونلبسه قميص الميثاق ، والذي تعاقدنا به في الأساس مع مدحت ملك التجارة على صفقة الأسماء سابقًا، مليون أرينا على من ينبش العقد أو يخالفه، ثم اجعلوا معاد تسليم الأسماء بعد ساعة واحدة من معاد

تحويل العملات، أهم شيء في هذا الأمر هي الدقة التامة في المواعيد، عساكم أن تكون هنالك ثانية خطأ، ستهوي بكيان الخطة بأكملها وسوف نشرف جميعًا داخل المحبس، هكذا لم يتبقى سوى "علاء باشا" ملك الحراسات، وتوفيق ملك السيارات، هؤلاء سوف أتولى أمرهم بنفسي، في الصباح بعد أن نستقر نفسيًا سوف أقصد علاء باشا مباشرةً .

علاء هذا لا يعنيه أمر شيء، لا يكترث لأشخاص حتى وإن كان منهم من حيز الأقارب، ما يؤرقه فقدان المال وخسارة فادحة تحل، يبيع العالم أمام المال، ولكن العجيب في أمر هذا الرجل حقًا, أن من يسمع عنه ذلك ظنه رجل مارق ومخادع لا يتحلى بصفات الشهامة والحفاظ على المواثيق, ولكنه على العكس تمامًا، هو لا يخلف قولًا أبداه لمستمع على سبيل وعد، المشكلة الحقيقة تكمن في كيفية إقناعه واستخراج منه عهدًا وميثاقًا، أعتقد أن مبلغ خمس مائة ألف كوبارًا يفي بالغرض، وبعد توقيع العقود والشروط الجزائية يصبح التنفيذ كالتالي :

في الساعة العاشرة من مساء الغد، نبدأ بوادر التنفيذ بمدحت التاجر ومحسن صاحب العملات، وسوف يحضر معنا علاء بالحراسات التابعة له، لقد ولع بالمبلغ الذي عرضته عليه، سيكون علاء قادمًا وبحوزته سيارات توفيق بالتأكيد كدعامة له في التنقل السريع، توفيق من هوام تجار السيارات لا يتعرقل معه أي نوع نادر من أنواع السيارات، وقت التسليم أعطي محسن عينة من أموال الكوبار، والتي تتمثل في عدد عشرة ألاف من فئة المئتان، سينفجر غضبًا لما يرى العشرة ألاف تلك بهذا النمط، إن العدد التسلسلي متشابة، وهذا يعني أن مليون واحد فقط هو السليم، أما الباقية طبع عليها ذات الرقم المسلسل، هذه أعمق حيلة تجعله ينفض يداه عن العقد المبرم،

لأن هذا يعد تزويرًا ولكنه عصريًا إلى حد كبير، فيمكنك صرف المال ولكن في أماكن متفرقة على أزمنة

متفاوتة، فينكث محسن العقد.

علاء لن يدع حلم الخمس مائة ألف يذهب هبائًا منثورًا، لذا لا أحد يقلق، فلسوف نضع قدم فوق قدم ونحن نشاهد محسن وهو يدفع لنا مائة ألف أرينا مرغمًا.

مدحت سيأخذ خمسون ألف أرينا نظرًا للشرط الذي قدمناه له، ولكنه بعد ساعة واحدة يدفع المسكين مليون أرينا شرطًا جزائيًا لشوكت على الصفقة التي خالفها لعدم وجود الأرينا الكافية .

وشوكت أعتقد أن الودائع الخزائنية ستقصم ظهره، أما توفيق فكل هذه السيارات تابعة لملكيته الخاصة، فإذا أراد أحدًا أن يتتبع لينتقم، فأرقام السيارات ستفي بالغرض، وبهذا الشكل صار معنا خمسون ألف أرينا والتي تعادل مليون وربع المليون من الكوبارات خمس مائة منها نصيب علاء، وسبع مائة وخمسون ألف إلينا، وكان الله بالسر عليم .

تـــــــشـــــــك ... تـــــــشـــــــك، اللفافة الخامسة والستون بعد المائة الثالثة وذهاب نصف عام فوقهم على التتابع الحتمي، مر عام ونصف في لمح البصر، هكذا الوقت كالقطار لا يعرف الاستكانة، أيام تُلاك كاللفافات دون أن ندري، لم يعد النفس الواحد يجدي نفعًا، لابد من رفع معدل الجرعة اليومية من المخدرات، لقد لعب المال لعبته العينة،

سبع مائة وخمسون ألف قادرين على إبدال حياتك بأكملها رأسًا على عقب، فيشعرك المال بأنه كل شيء والعكس، أن يكون خاويًا في ذاته من السعادة ولكنه يجعل التعاسة أكثر مرحًا، أن يكون في حد ذاته مرحلة من مراحل الفقر إلى الله، على كلٍ، فجميعنا يتفق في أن العِلة كامنة في اليد القابضة عليه وقت تصريفه، سبع مائة وخمسون ألف؛ قادرين على أن يجعلوك حشاشًا على المدى عربيدًا، أو سكيرًا متشقلبًا، أو متعاقرًا حريفًا، أما النساء سيبدون لك أقزامًا، وحينها ستئد أول حب لك لحظة ثرائك، فهذه الليالي الخاليات التي كاد أنين فكرها أن يهشم رأسك، ستمحوه وأنت راضٍ بما تصنع الضمير ؟؟، مع الوقت يتأقلم، فالتجربة الأولى التي أهلكتك تأنيبًا، تابعتها الثانية التي لم تكترث لأمرها، فنازعتهم الثالثة حتى احتلت عروش فطرتك، تجد أنه لم يعد هناك صدى للمدعو ضميرًا ؟

وفي هذه اللحظة قف قليلًا في المنتصف لترى المجتمع جيدًا، ثم أطلق صراح يدك ليعلو صدى تصفيقها أصداء كل هؤلاء الذين أمامك الآن، صفق لهم، صفق للفاشل وصفق للناجح "إن وجد"، صفق لتلك الشمطاء التي تأبى أن تعترف بشيختها، متخذة سبيل المساحيق مذهبًا حتى كادت أن تأكل ملامح خلقتها، صفق للذي لا يزال في ضامرة بعض القناعات بأن يصل لهدفه - صفق لهذا الأخير جيدًا -

صفق للمبنى العملاق ولكل بشواته، ثم امضي شاكرًا لهم جزيل الشكر والعرفان، أفلا تكون عبدًا شكورًا يا هذا ؟، قل لي بربك إن لم تفسد عربتك، ويستباح حلمك ويصبح أملك سافرًا عاريًا، أكانت كل هذه الأموال آتية ؟، صفق يا فتى صفق وكن ممن يوجبون الجمائل !، ثم صفق لهؤلاء الحمقى أصحاب الأسماء، وقل لهم لولا أن أمسكتم على اللاشيئين ما كانت مثل هذه الأفكار العبقرية تطرقت إلى أذهاننا قيد أنملة، ولا تنسى حظ السجان من التصفيق، ثم أرفق في تصديتك وأنت تصفق للأم المكلوم، وإن شئت أزرف لها من الدمع قدرًا، وعساك أن تسهو على أن تصفق للأنذال، مستنقع الأنذال، صفق لهؤلاء المنافقون وصفق للرويبضة، صفق لبعض المشايخ من الذين هدموا من حيث أرادوا البناء، ثم قل لهم :يا شيخ أما يكفيك من الميل والانحراف إلحادًا ؟، صفق لطلبة البراعم وقل لهم أن تعليمكم الآن لن يجدي نفعًا لاحقًا، صفق لنفسك الآن فهي أقرب إليك وأعز إنسان، أعتقد أننا لم

نترك أحدًالم نصفق له، حتى هؤلاء الملاعين ذكرناهم، لست أدري هل سهوت عن أحد ؟

آآآخ ...!

لقد سهوت حقًا عن أهم الأشياء .. فلتصفق إذن، "فلتصفق للحشيش !"

تـــــشـــــــك ... تـــــشـــــك

هكذا تتابع الأيام، أنفاسًا يعقبها أنفاس مُزجت بقطرات الندى، إلى الصباح يقظين، إلى الصباح نحتسي، فلا تقل كيفًا قل علقمًا، حنظلاً، قاتًا، أيام تهرول وليالٍ تنفذ، ما عاد في العيش خيرٌ، لم يعد سوى المخدرات و الغطرسة، لعين أيها المال، ومعشوقنا في الوقت ذاته، فلا أنت الوفي الذي نهتدي بك إلى سبيل الرشاد، ولا نحن ممن يتعلم من سقطات المولعون بجنابك، رغم ذلك لم يركن السائر لدعاوي النساء، فيكتفي فقط بالمخدرات، قد يرجع هذا إلى بعض القناعات لديه التي تنتشله من طريق يتلاشى فيه أنوار الأنابة، مع أمل في الخالق بأن يجعله يعدل عن تلك التعاسة الهاوية، ألونها مكفهرة، لا تنجب غير الظلمات، في شقة مائجة لا تعرف سوى الملذات، وصحبة لم يتقوا الدنيا ولم يتقوا النساء، فمن ذا الذي يكبح جماح نفسه إذا ما استشرف الفاتنات في تلك الليلة التي كان السائر فيها يتجرع ذكراه، حيث كانت ليلة وعرة مظلمة وممطرة، راح السائر سكرانًا إلى حد الثمالة، ومسطولاً من كثرة

الدخان الذي استقبله بأريحية على أبواب صدره، صوت هنا ومرقعة هناك، وصخب بينهم، من يتقيء إثر جرعة زائدة عن الحد، ومن يغشى عليه، ومن يخفق إلى أن نظر السائر أمامه صوب استقامة نظره وكانت الحياة في عينية كما الأشباح من أثر السكر.

وفجأة ...

يجد أمامه الجمال الساحر والعناء القاتل، فاتنة ما أروع طالعها، وتعيسة ما أبأس حالها

امتقع وجهه وظل يمرر أصابعه فوق عينيه، فسحرها أنساه ما كان فيه من سُكّرٍ ارتعشت يداه وتجمدت ساقيه، فجاءت الذكرى توقف نبضات القلب وتفتت عظم الرأس وتستبيح الماء داخل المُقل .

****

فدفعه الفضول ليختلس النظر على تلك التي أشردت له الذهن فقال :

- أتحبها ؟
- ما أدراك ؟
- كثرة شرودك

- أنت لا تحبها

- نعم ؟

- بل أنت عاشق يا صديقي .

****

ذروني فردًا، أو أمهلوني منقبًا، يا ويلتي، سمعتهم يقولون لها "رهف ...! "، لاشيئية مُكناه أم اسمية مجردة من خيلائها ؟، قد أحبها الجالس المسكين باطلا ً رباه ما كل هذه اللعنات، المال جعلني سافرًا كالماجنات، والضمير تعرى من الصواب، والمبادئ في خواء، فأف لي وتف وقبقابٍ وخف، تبًا لتلك اللعنات، تبًا لهذا المال، سحقًا للصحبة الغافلة، وتبًا لتلك الحسناء التي قتلتني ولسوف تقتل الجالس هو الآخر، تبًا لوقعنا، تبًا لي ولهم ولها، ليوم عدلت فيه عن فكرتي، لساعة هوى وشيطان، لصاحب أطاعني على الشرور، لقاسي ظلمني، لقد زهدت حياتي في ملامحي، فكيف أعود لنفسي التي سُرقت من نفسي ؟، أسترجع ذاتي التي سُلبت من ذاتي، أستعيد مداركي التي إنصرمت عن عقلي، أنفض وباء القنوط، أبثق درن اليأس وربو الجحود، أنتزع ذلك المارق مني، أقتلع قميصًا قَمَصتُ به نفسي .

رباااااه.

ترك السائر الشلة من فوره ورحل، مهرولاً صوب القاع، لا يدري ماذا يفعل، وطأ أرض المدينة، في الساعات القريبة من تأخر الليل، الساعات التي تمثل للبعض حياة، وأي حياة في غياهب الظلمات، حياة الخفافيش، هناك في مدينة القاع قل ما شئت وقتما تشاء، ولكن أحذر أن تنتقص من عادة التنطع في ساعتهم الذهبية، "التاسعة مساءً"

وقف السائر على أعتاب المدينة مختنقًا، يزدرد ريقه الذي بات قاتًا مريرًا،لم يجد أمامه سوى صديقه الجالس، يجلس داخل المقهى، وقد آل الجالس إلى القنوط واليأس، فالجحود أصبح حاله والمروق سيكون مئاله، وجلد الذات صار ديدنه، مزيج نفسي شكله الواقع بحرفية مما لا غرو فيه، يزيد بلته طين، قبول ابن الدكتور الفلاني معيدًا نظرًا للواسطة، فماذا لو علم أمر رهف ؟، مسكين يا صديقي، ظل السائر يقترب حتى كاد يبكِ، والجالس ينظر إليه في إمعان .

وفجأة...

تأوة السائر وصرخ صرخة أسمعت الطير في السماء والأسماك في البحار، من أثر ضربة استقبلها في منتصف أنفه من رجال الأمن .

- آاااااااااااه

وأخذ الجالس يقهقه دون هوادة ...

البداية

" مضمون هذه النظرية، أن الناس يبدأون من حيث ينتهي الأخرون"، فكيف ستكون بداية الجالس ؟، وكيف ستكون بداية الشيخ ؟، ومن هذا الشيخ أصلاً؟، وما أمر رهف ؟، وماذا عن الطفلين المشردين ؟، وما أمر هذه المدينة العجيبة ؟، وماذا عن رسالة "الخلاصة" هذه ؟

إنها فقط البداية !

****

تثأب "حُلم" ثم أخفض قلمه عن الأوراق وهو ينظر جيدًا في أوجهٍ باتت ضائعة، ولكنه لم يكف عن التدوين كاتبًا :

"كل الأصوات التي كانت تتعالى فيتصدع منها أروقة الجمادات قد أقمعت، لا تسمعون فيها الآن إلا حسيس الخلائق، لقد هب الظلام هبًا بكثافة تعادل مائة بالمائة حتى تظنه صمدًا، أخذ السائر يفعل من حاسة الشم عنده حيث لا بصر لا إحساس، يشتم الأشياء من حوله كي يصل لكنهِ ما أسكنوه، والجالس لا زال جالسًا على المقهى، مغاضبًا تغلي الدماء في عروقه، تفاقمت غضباته فشاح بالكوب التي كانت أمامه لتنهال أرضًا وتصير فتاتًا، نظر إليها مليًا ولم يكترث البتة لأمرها، والشيخ قد آثر الركون إلى المسجد حيث هوائه الذي يستنشق، ولكنه قد شعر بالإعياء بعض الشيء في الفترة الأخيرة .

وعلى الصعيد الأخر حيث تتناثر أطفال القاع في تسول مقصود، رغم أن هذا الشكل من تبعثرهم يشير بالضياع، ولكن ما أعجب تلك الضحكة التي ارتسمت على قسمات وجوههم، ترى البراءة لا تعرف للقاع سبيلاً، من بين هؤلاء المشردين يعلن الطفل والطفلة المقاطعة عن اللعب، وكانا يحتاطون إلى سورٍ ممدود، يميلان عليه ظهريهما، وقد هتك الجوع عرض بطونهم، لن تخرج من القاع إذا ما ارتحلت إليه ذات يوم، إلا إذا عرفتهم من لحن قولهم،

اللحن الذي يتنغمون به على أوتار اليأس فتقول الطفلة: "تفتكر مشكلتنا هتتحل ؟، هيجبولنا أكل؟"

أما رهف؛ إلى أين ذهبت لست أدري، كل ما أتذكره أنها لم تجعل التاء المربوطة تُقيدها!، والأم المكلوم لا تزال مناجية، فعساها أن تعاين كاشفًا يكشف عنها ما قد

حل بها من ضعف وهوان، أرقت له الجوارح وقوض منه القلب، فادعوا لها الله أن يرزقها بخبرٍ يثلج صدرها ويرطب عليها عواطفها .

هَمَّ الجالس واقفًا من مجلسه، وقد انفجرت حواسه بالغضب، يأخذ شهيقًا وزفيرًا يخرج ركل المقعد الذي كان يجلس عليه حتى هوى به أرضًا، أحدًالم ينكر عليه وذلك لعلمهم ما قد نزل به من وجع، فهناك طفيف من روح الأخلاق لم تدفن بعد عند القوم !، على أي حال لا يحسدون على حالهم، سار الجالس في ممشاه لا يعير أحدًا اهتمامًا، غضب أمسك بوجدانه، وحنق أحاط به فتملك من كيانه، كُرهٌ غلب على أسماعه

وأبصاره، كادت المواضع التي يطأها أن تصرخ ونسمع ألم أنينها من فرط الغل الذي كان له بمثابة القرين، وصل عند أول الطريق صعودًا إلى الجبل، أعلى أماكن القاع على الإطلاق، شاهق يصيب الناظرين من أعلاه بالدوران، قبض على قبضات يده وراح في حديث مع النفس قد توغل إلى عمق أحواله

ودقائق تفاصيله، ظل يصعد وصوت نفسه يرتفع، قائلاً في ضيق يميل إلى القتامة:

- كل شيء يسير بالعكس، كل شيء صار خاطئ كاذب، هذه الحياة أكبر كذبة يمر بها الإنسان، لا معنى بأن نعيش، ما معنى العيش أصلاً ؟، لماذا كل هذا يحدث معي ؟، لماذا تلاحقني الأقدار هكذا ؟، فتصيبني حيثما خطوت، أكان هذا إثم أبي ؟، أم خطيئة أمي ؟، إذ جئت من صلبه ودفعني رحمها !، فاللعنة على الحياة، اللعنة على البشر، اللعنة على كل شيء .

وصل إلى منتصف الجبل ومازال يصعد وتحادثه نفسه:

- نعم هي خطوات قليلة وقرار لا رجعة فيه، كي أزيل كل هذا الهم والعناء والشقاء، التعاسة أكلت الجمال، فلا شيء يذكر أصلاً على سبيل جمال، لعنت حياتكم ولعنتم فوق لعنتها .

وصل عند حافة الجبل وقد لفح الهواء الطلق جسده فأشعره بلسعة برد قاسية، نظر من الأعلى فرأى المدينة يداعبها الضوء ويغلبها النعاس:

- أأنت المدينة ؟، من يراك من فوق ظنك رحيمة، ولكنك مثل عروس البحر، تبدين زينتك لتغرقي من أعجبك حسنه، غير أن نهجك

يختلف عن نسق عرائس البحار، أنت لا تفرقين بين من يعجبك حسنه ممن لا يغريك، فأصبح كل همك هو إغراقنا على الدوام، اللعنة عليك وعلى من فيك .

ثم بصق على المدينة وراح ينظر إلى الأسفل فأخذ نفسًا عميقًا ليقصد بعد ذلك القفز، فأطلق صراح يده اليمنى إلى أن تمتد ويسراه كذلك، ثم أغلق عيناه وهو يزدري الكون قائلاً :

- "اللعنة عليكم، اللعنة على الحياة"

صوتٍ ما انفجر فيه قبل أن يقفز جاءه من الخلف:

- إثبت أيها الجبان الرعديد .

تسمر الجالس مكانه؛ فأنزل يداه وفتح عيناه، يبحث عن مصدر للصوت فلم يجد أحدًا!، نظر خلفه وكأن السراب صاحبه، فارتفع صوته الغاضب بقول به مسبة:

- تتابعت عليكم اللعنات أيها الحمقى، من يكون اللعين ؟

السكوت والسكون ساد موقعه، ارتفع غضبه ثم راح يقدم إلى ما قد حيل بينه وبين ما أراد فعله، حتى عاود النظر إلى نقطة البدء التي لم يدركها من هفوات، إذ بظلام دامس حالك السواد مريب المنظر والهيئة يقف أمامه، في

قمته شيء يقول أن هذا السواد له عينين ولسانًا وشفتين، أشعل رأسه شيبًا، فتفوه الظلام قائلاً:

- ماذا تريد مني أيها الغبي ؟

سجل الجالس خطوتين للخلف وقد ارتجفت أوصاله ومزقت أساريره مزقًا، فقال بصوت متهدج وبقلب ملتاع :

- ها .. ها .. من أنت .؟

رد عليه الظلام المريب بصوت كالرعد الفازع :

- أنا الانتحار الذي قصدت، ها أنا ذا أقول لك حقًا والحق أقول، إذا ما جُرحت في إصبعك وهذا الجرح سبب لك الألم الكثير، ومن شدة الألم ذهبت لتقطع يدك حتى يكف إصبعك عن الألم، ألا ترى أن قطع اليد أشد إيلامًا ؟ كذلك أنا -الانتحار- عندما تلتجئ إليَّ لن ينتهى بك المطاف، في الحقيقة سيذهب عناء الحياة؛ ولكن العاقبة أكبر وأبشع!

نظر إليه الجالس في سخرية، وقد أحس منه البلاهة وعدم الإقناع، ضاقت عيناه فازداد فوق غضبه غضب، ثم أخذ وضع الاستعداد، ركض بكامل قواه

نحو الهاوية، ظل يركض ويركض حتى وصل إلى حافة الجبل، فأطلق بعض الكلمات والتي قصد بها ذلك الظلام قائلاً له :

- "اللعنة عليك أنت أيضًا"

وقفز من أعلى الجبل قفزة قد اجتمعت لها كل حواسه وأعضاءه وكل دقيق وكبير من جوارحه، ظل يهبط ويرى الأرض تقترب، فيرتفع صوت صرخاته إلى السماء، يهبط هبوطًا حادًا والأرض تقترب، حتى استقبلته الأرض على ظهرها، ليرتطم بها ارتطامًا مبرحًا، محدثًا على إثر ذلك صوتًا دوى بالمسامع، تسطح على الأرض ولازال القلب ينبض يقبض ويبسط، حتف لم ينزع بعد، الأنفاس الأخيرة على أهبة الاستعداد، إنه الموت، إنه الفزع، إنها البداية !، يتنفس الصعداء، لحظات وتنتزع الروح، لكنه لم يمت !

صوت ما هنالك أرتفع ليخترق مسامعه في تسطحه، نعرف جميعنا ما كنه ذلك الصوت ونعرف أيضًا من المتحدث، كان الصوت للشيخ الطاعن معلنًا عن آذان الفجر :

الله أكبر .. الله أكبر ..

نازع الجالس في مرقده، وشيء لم يحدث فينازع حتى وصل الصوت إلى:

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمد رسول الله

هنا مُنح إرادة أمكنته من فتح عيناه التي أغلقت قهرًا، ليجد نفسه مستلقيًا فوق فراشه تداهمه أضغاث أحلام، شاح بالغطاء الذي كان عليه وهَمَّ واقفًا، فتح النوافذ فرأى أمامه بعض الخلق ذاهبين إلى المسجد لتلبية النداء، جال ببصره حتى استقرت عيناه نحو السماء فرمقها بغضب، أبعاد تلك النظرة تكاد لو انقلبت كلمات لأسمعت الأصم، ولكن شيء ما أسكته عن النطق، استدار متجهًا نحو باب الغرفة، بِبُغضٍ نَهَر مقبض الباب ففتحه، خرج من الغرفة وكان الجميع نيام، وعلى المبدأ ذاته فتح باب الشقة، راح يصعد السلم متجهًا إلى سطح المنزل لينتهي الدرج معلنًا عن السطوح، السماء قد أشرعت ببزوغ الخط الأبيض وانقشاع الخيط الأسود، النهار يشقشق وأصوات العصافير تعلو بالتغريد، في ذلك الحين مكث الشيخ بالمسجد بعد انتهاء الصلاة، ممسكًا بمكبر الصوت، ليعطي للناس الدرس اليومي، يرشدهم ويحذرهم من عواقب البعد عن الله عامة وفي زمن الغربة خاصة، لم يكن يستمع إليه سوى واحد كان ينكت السجاد المسجي أرضًا، وآخر غلبه النعاس، وثالث يسمع ويريد الفرار بحثًا عن المال، والباقون قد رحلوا وارتحلوا، انتهى الشيخ وذهب الجميع، بينما ظل الشيخ مكانه، لقد اشتدت عليه الأوجاع، وارتفعت ألامه، قاوم ولكنه لم يقوى وخفقان قلبه يزداد، لم يجد شيئًا يريحه سوى أريكة بجانب المنبر قد وضعت له آنفًا من قبل المهتمين ولكي يركن إليها إذا ما شعر بإيعاء، ظل يحرك الأريكة حتى لصقها بالحائط، فانزوى

بنفسه داخل المسجد واستلقى وتعمق في النوم، وفوق السطح يتقدم الجالس نحو السور، ينظر إلى السماء بعين من الويل بتناثر على إثرها الجمر واللهب، فقال بصوت شبة هادر:

- يا أبانا الذي في السماء، قل لي لماذا خلقتنا، أنت لست بحاجة إلينا غير أنك تعلم أن أغلبنا في جهنم داخلين، أخلقتنا لتعذبنا ؟ أم هي إشباع لرغباتٍ انتقامية ؟، شقاء في الدنيا وعذاب في الأخرة!

سكت الجالس مليًا بعدما طرح السؤال الذي بات يذبح في قلبه وينحر في صدره، فآباء الأرض خَلّفوا بأيديهم أثرًا مروعًا في أنفس الأجيال، أعقبه رفضٌ وتهكم على رب السماء، ضغوط جمة اجتمعت من كل حدب وصوب لتنطق لحظة انفجارها، ولكن هل من مجيب ؟، ظل ينظر في كل الأماكن من حوله، ذلك بعد نضوب الطاقة بداخلة .

الصباح لا زال مفعمًا بالسكون، اشرأب برأسه من أعلى السور حتى عاود هاجس الانتحار يهيمن عليه، الشوارع فارغة لا صوت لِقدم فيها تدب، لا أحد يراك، قد ضاق بك كل شيء، حتى أنت لا تعلم لماذا أنت هنا !، أنت رخو، أنت لا شيء، أنت مجرد عدم جئت من وإلى العدم، الانتحار خيرٌ لك من حياة عبثية غوغائية، لا تدري الحياة لماذا خلقت هي الآخرى، كل شيء

عبثي، اللعنة على الأشياء، هنا نطقت الحياة مشفقة على الجالس فقالت في حناء :

- يا جالس، أنت لا تعرف عن العبثية شيئًا .

ضحك الجالس وقال لها :

- فلتجيبيني إن استطعت، لقد أشبعتمونا همًا ونكدًا،

والصبح إذ يتنفس ، ويحدج نظره بالحياة التي وقفت لتعلن على أن تذود ذود القشاعم، حيث أطروحات البغي صالت وغاب عهد الحواسم .

قالت الحياة في هدوء ملموس :

- اهدأ يا جالس ولا تحمل نفسك فوق طاقتها، وإذا أردت أن تخالف العبثية لا يكن طرحك عبثي حتى لا تقع في التناقض فتسقط هيبتك، السؤال الذي طرحته يعد أكثر من سؤال في سؤال، هذا إن دل يدل على عبثية الطرح عندما تقول لماذا خلقنا الله؟، هذا سؤال يختص بذاته، فإذا أردت إجابة ترضي صريح العقل ولا تخالف صحيح النقل، لابد أن نرد على جزئية جزئية حتى لا نخلط الأمور ونعطي ردًا بالغًا، فعند تناول جزئية لماذا خلقنا الله، نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أبعاد، كل بعد من هؤلاء يبني ما تحته ويعزز ما

فوقه حتى تكتمل حلقة الوصل بينهم لا يستقيم أن ينفك بُعد عن الآخر.

أولاً :-

كلمة "الله" هي كلمة جامعة على الشمول بين "الرب والإله"

معنى كلمة رب : أي القائم على الشيء أو الخالق أو الصانع .

معنى كلمة إله : أي المعبود أو الذي يُعبد .

وحين نتفق أن الله هو القائم على الأشياء والخالق، نكون بحاجة إلى دليل قطعي لإثبات ربوبيته .

مثلاً لو قلنا، أن أحد الأشخاص يصنع ويبتكر، فما الدليل على كونه من فئة الصناع؟، فلا بد أن يكون الشيء الذي أتم صنعه خير دليل، وهذا ما نعنيه، كيف نعرف الخالق دون مخلوقات؟ فنجد أن خلق الخلق يُعد تحقيقًا ضمنيًا لمضمون "الربوبية" ولكن هل خلقت الأشياء عبثًا ؟

الثانية :-

على غرار مفهوم الربوبية وتحقيق أولى مقاصدها ببدء خلق الخليقة، يدل هذا على أن الله لم يخلق الإنسان وحده، بل الإنسان كائن من ضمن الخلق، يسعى في ملك الله ليس إلا، هذا النشوء الكوني لم يكن عبثيًا على الإطلاق بل

هنالك تناغم منقطع النظير،تصور أنك نزلت في إحدى رحلاتك بإحدى الفنادق، وعندما دخلت غرفتك وجدت كل شيء نسخة مطابقة من نوع الأكل الذي تحبه، والسرير الذي تفضل النوم عليه، نوع الزهور نفسه الذي تستحسنه وضع لك في المزهرية، نفس نوع الشامبو داخل الحمام، نفس ديوان الشعر الذي تفضل القراءة فيه، وكلما جُلْتَ ببصرك وجدت حولك تطابقًا بين ما تحبه واعتدت عليه، وبين ما وفرته لك إدارة الفندق، لا شك أن احتمال العبث والمصادفة يتناقص تدريجيًا، حتى يثبت في يقينك أن أحدًا قد أطلع إدارة الفندق على تفاصيل حياتك ودقائق رغباتك، ثم تفاجأ أن إدارة الفندق أحد أحبائك المقربون، ونزولك مقام لفترة ليست بالقليلة، والتكلفة بالمجان، هل يستقيم أن تقف حينها متزمجرًا وتقول: "لماذا أسكنتموني الفندق؟"وهذه الحياة !

الثالثة :-

بعد تحقيق أولى مقاصد الربوبية ببدء الخليقة، ثم تأتي إلى حياة متناغمة أُعِدَت لاستقبالك، وبعد أن خلقك الله بيده وأواك في مُلكه وسَخَرَ لك الأشياء، كان حقٌ عليك عبادته، ولكن هل الله بحاجة لعبادتي تلك ؟، تعال نضع العبادة في الميزان ونرى اليوم عند ربك بمقدار خمسين ألف سنة من عد البشر، فكل خمسين ألف سنة يسجل عند الله يومًا واحدًا، فلو قلنا أن الإنسان يعيش مائة عام، فهكذا قد سُجل عند الله ثانية ونصف، لو أخرجنا

منهم النوم والمراهقة، نجد أن حياة الإنسان الفعلية عند الله تكاد تكون نصف ثانية !، إذا افترضنا جدلاً أن الإنسان ظل طوال حياته ساجدًا لم يقم من سجدته، سوف يسجل في سجوده لله نصف ثانية، فتجد العبادة هنا تنقسم إلى صعيدين وهما :

صعيد الله : هو إقرار من العبد بوحدانيته وألوهيته وربوبيته بالقلب والجوارح، وعلى صعيد العبد تكون العبادة والتي مفادها : كل ما يحبه الله ويرضاه من قول وعمل باطن وظاهر، يعيش العبد في كنفها على حسابه للعمر -المائة عام- في تزكية للنفس والارتقاء بها وبمن حولها، ثم ينتهى المطاف، وأبرز ما في تلك النهاية هي الجنة والنار والناظر إلى الجنة ونعيمها يجدها عطاء من الله وليست جزاء لما عمل من عمل، فأي عاقل يقر بأن نصف ثانية تكون بمثابة جزاء لامتلاك جنة عرضها السموات والأرض؟، ومن هذا العطاء الرباني تزال على الفور شبهة احتياج الله لعبادتنا، ثم على شق أهل النار، نرى أن الله يعاملهم بالجزاء لا بالعطاء، هذا إن دل يدل على العدل والرحمة في آن واحد، فجزاء السيئة مثلها، وهذا حتى لا تضيع الحقوق وترد المظالم، وليست جهنم على سبيل إشباع رغبات انتقامية، كما زعمت أيها الجالس، وإلا لماذا يعطي كل هذا النعيم لأهل الجنة إذا كان يريد عذابًا والسلام ؟

الختام :

1- أن تعرف ربك وتفهم معنى الربوبية .

2- ثم تأتي إلى حياة أعدت لاستقبالك.

3- فتقر بالله ربًا وبه معبودًا .

4- فتذعن وتنصاع لأوامره ونواهيه حتى تزكى الأنفس.

5- فتسعد في الدنيا وترقى.

6- فتعطى عطاء عرضه السموات والأرض "الجنة".

وهنا قد اكتملت الحلقات الثلاثة، ولهذا خلقت يا جالس .

عجز الجالس عن النطق، فلقد أصابته كلمات الحياة في مقتل ما ظنه صلبًا لا ينكسر، وقد لا تدري أن الصلب عاجزٌ أمام النار، والنيران تعجز أمام، بحر الدين الهادر، رغم ذلك صار الجالس يطلق زفيرًا متتابعًا، مسكين الفتى قد مُزق نفسيًا، من قاعٍ، لا يعلم، لا يحتوي، ولا يرحم، فات الأوان ما بات سرٌ ما تكن صدور الفتيان، جال ببصره ماسحًا به السطح، فترامت نظراته صوب تفاحة حمراء اللون، تقدم نحوها على قهرٍ، فأمسك بها، ليرفع يمناه ملوحًا تجاه السماء وقبضة تحوي التفاحة، رامقًا السماء في سخط ومتفوهًا في صخب :

- يا أهل السماء، أكل هذا العناء بسبب هذه التفاحة ؟، ها هي وأنتشلونا من القاع .

ألم يآن بعد ؟، أن يستبعدونا عن هذا الظلام المعتم ؟

هكذا قال السائر في محبسه:

- هل هناك أحدًا هنا معي ؟، أنا لا أعلم إن كان البصر قد سُرق وصرت من العميان ؟، أم ما أسكنت هي العتمة ذاتها !، يا أهل المحبس أعيرونا مسامعكم، هل عُمينا أم هذه أحلام ؟، أم نحن أمواتًا ونحاسب ؟

صوت ما هنالك آتٍ من بعيد في أخر الطرقة، يتقدم نحو الغرفة التي نزل بها السائر، دبيب أقدام ترتفع شيئًا فشيء مُزجت بصوت فيه -خروشة- مفاتيح، وقف السائر بجانب الباب يلقي السمع فيتفرس الصوت القادم، وصل الصوت عند باب الزنزانة، ولكنه لم يتوقف عن المسير حتى بدى أنه قصد زنزانة آخرى، مع التنصت الذي طوق السائر، سمع صوت الزنزانة المجاورة يُفتح بابها، فيخرج منها أناس، هذا ما استطاع تفسيره من أثر الصوت .

بعد عشر دقائق عاود الصوت، ولكنه في هذه المرة قصد زنزانة السائر أن يفتحها ليخرج إلى النور، فتحت الزنزانة، تسربت حفنة من فوتونات الضوء إلى الداخل، مما جعلت السائر يدفع بيده ما قد وقع على عينيه من نور مخترق، تقدم السجان نحوه ثم أشار إليه أن يخرج معه، العجيب أن السجان لم يفعل له شيئًا على غير العادة، فهل معاملة النزلاء تختلف عن معاملة

المستجدين ؟، لابد أنك سمعت ذات يوم أن هناك حفلة تشريف لا تقع على عاتق النزيل !، أظن أن السائر قد استشرفوه بها!، يقع في نهاية الممر، مكتب تظنه من التنظيم والحسن جنة، دخل الجالس فيه زجرًا، إذ يرى عقب الدخول، فتاتان وشاب في عمر ما فوق الثلاثة والعشرون، تعرف الفتيات من نظرتك الأولى إليهم، فسماههم على ظهورهم، يحملن أدوات كلية الهندسة، والشاب لا يبدو عليه ذلك، راح السائر يتفحص تلك الوجوه، فخاطبته النفس ببعض الاستفهامات: " أن ما السر الذي يجمعني بهؤلاء ؟، العجيب أن نجتمع هنا على وجه الخصوص، ظننت بأني سألتقي بشلة الجامعة على خلفية ما فعلناه مع الأسميون !، نعم؟ هل أحملها وحدي !"

إنزوى السائر إلى ركن ما داخل المكتب ولم يبدي اهتمامًا بمن حوله، ظنًا منه أن تكون هذه مكيدة دُبرت له حتى يحيطون بأحواله علمًا، ظل ينظر إليهم في ريب وعلى ترقب، وهم كذلك قد تحاشى في أذهانهم على الفور مبدأ المؤامرة، فيا لها من نظرية سلبت الغالي والنفيس، وما هي إلا ظنٌ يُظن، ولا نعرف للظن نعتًا، إلا أن بعضه إثم، جدلاً في الافتراض لو قلت أنهم من مدبري المكائد، فكيف يستقيم أن يجلسوا بجانب بعضهم البعض هكذا ؟، أعتقد أن هؤلاء زج بهم إلى هنا، وذلك في وقتٍ واحد وليس على أزمنة متفرقة، بل أكاد أجزم بأن بينهم معرفة سبقت مثالهم الحالي، لو أن أحدًا من بينهم يخلق معيً حديثًا فأتفرسه لكان عين الطلب والمراد، فما يدريني ما إن

خاطبتهم ابتداءً لا يكونون ناظرين إلي بالنظرة ذاتها التي أخشاها أنا فيهم ؟، بل أعينهم تقول الشيء ذاته بكل وضوح، فمكاني موضع شك أكثر منهم، أنا وحيد هنا، قد أكون في أذهانهم متأمر ؟، يالها من نظرية لعينة لقحوا بها العقول، تقدم الشاب الذي كان بحصبة الفتاتان نحو السائر، أعقبته إحداهما، فالثانية في الدبر، حتى راح الشاب يسئل السائر :

- من أى كلية أمسكوا بك يا صاحبي ؟، أنا علوم، وهذه هندسة والآخرى هندسة أيضًا

تعجب السائر من هذا النمط في الحديث، فما معنى أن يُسئل سؤالاً لا يدل إلا على أنه يضعني صفهم ؟، مضحك سؤالك، وهل صار حال الطلاب إلى هذا الحد من بعد ما تخرجنا، حدق السائر في عين الشاب ثم رد عليه السؤال بسؤال :

- وما الذي يجعلك ميقن بأنه قد تم القبض عليَّ من الحرم الجامعي ؟، وما يدريك فلعلني لست طالبًا ؟

قالت إحداهن تعقيبًا على قول السائر :

- قد لا يستشف من هيئتك الإجرام، لابد أن تكون هنا على خلفية لا علاقة لها بتجارة المخدرات مثلاً

رد السائر وقد داهمته الحيرة متسائلاً :

- ماذا تقصدين, أنا لا أفهم توريتك ؟

على حين غفلة وهم متعمقون في الحديث، و قبل أن تتفوه الفتاة فُتح باب المكتب، وإذ بأحدهم يستدعي السائر للتحقيق، فلبى السائر النداء، ثم تقدم نحو الداعي إليه، في حين قال له الشاب الذي كان معه، بعض الكلمات في تخفٍ مريب :

- كن كالأبله ولا تتفلسف كثيرًا، فأنت قادم على قوم يعادون اللباقة .

سمع السائر الكلام و لم يستوعبه، ولكن قالت له نفسه، ماذا يقول هذا السخيف ؟، أتفلسف على ماذا ؟، وأكون أبلهًا لماذا ؟، وأي لباقة تُعادى ؟، أنت لا تعرف عن مصيبتي شيئًا أيها الأحمق، لقد احتلت على أموال لهوامر الأسميون، دعني أرجوك وكل هذه الألغاز، انتظر السائر قليلاً بالخارج حتى ارتفع صوت من داخل مكتب المحقق يأذن له بالدخول، ولما دخل رأى شاب في عمر الثلاثين جواره كاتب يسجل الحديث أذن للسائر بالجلوس و للحارس بالانصراف، جلس السائر كما قيل له، على غير المألوف أن تكون هذه ردود أفعال لمحقق، سمعنا أن هناك انتهاك لا حد له ولا مثيل

أي نعم قد ذاق السائر انسحاقًا لأول حلم بدى له نورًا، ولكن هناك أمل حسه خالطه خوف تملك وجدانه من أثر هذا السلوك، ابتسم المحقق ابتسامة هادئة ثم صمت قليلاً فقال :

- كيف حالك يا صديقي .

نظر إليه السائر في بلاهة لم يصطنعها، بل هي التي تملكت من فرائصه، فكلما ارتفع معدل الأمل والشعور بالأمان، إزداد سقف الخوف صعودًا، حتى إزدرد ريقه وأطلق قولاً مجردًا :

- إني بخير .

ظل المحقق على سابق ابتسامته حيث استأنف :

- ماذا بعد، شيء ما أزعجك هنا ؟

أحس السائر بالغموض، هاجس ما هنالك يقول :"قد يكون هذا لون من ألوان التحقيق الجديد والمتقن، فلا ينتدب فيه نمطية س:- و ج:-

أظن أنه يركل الكرة في ملعبي كي أبدأ أنا بالحديث ومن ثم أضع نفسي موضع المدافع، في حين أنه من الممكن أن أجعله هو المتحدث ليعطي معطياته ولا أكون في موقف المتهم، فرد السائر قائلاً :

- لا على الإطلاق.

فقال المحقق بعد أن اعتدل في جلسته شيئًا قليلاً :

- حسنًا، هذا على جميع الأحوال جيد .

ثم استأنف بالبسمة ذاتها، غير أنه أراد أن يضفي روح الدعابة أيضًا :

- أنت هنا لنتبادل الحديث سويًا، فلا تظنه تحقيقًا بالمرة، بإمكاننا أن نوسمه بوسام حديث الأحبة، أن يناقش الأخ أخاه، أعتقد أني أكبرك في السن، وأظن أيضًا أنه لا حرج من جانبك في ذلك .

يستمع السائر ولا يعقب حيث أن الأمر يزداد تعقيدًا بالنسبة له :

- الشباب في مجتمعنا هم كل شيء لا أحد ينكر ذلك، حيث أعد أنا أيضًا من هذه الفئة العمرية، ولكني أختلف عن العامة بعض الشيء نظرًا لعملي، أضيف إلى ذلك أن ما أروع أن تجتمع الثقافة في الشباب، فنكون حقًا على مقربة شديدة من التقدم، وما أحوجنا .

يستمع السائر ولا يفهم شيئًا فيقول في نفسه، يبدو أن الأمر أعمق مما أتصور.

- ولكن ما يؤرقني حقًا، أن تستقي الشباب من بحر الثقافة المعادية، فيتصورون أن ما يحدث في البلدان المجاورة كان حق علينا ولزامًا، فانظر مثلاً لما وقع على المدينة التي تدعى "روسيا" عند حدوث الثورة البلشيفية، وأيضًا لِمَ حدث عند الثورة الأرانية، يقول الساسة؛ لا تنجم مثل هذه الظواهر إلا عن طريق بذور شبابية لم تعار بالأهمية، فأحدثت الفتن والقلاقل.

بدأ الأمر ينقشع غباره للسائر:

- ولكن ما دخلي أنا بهذا ؟

- أنت هنا على خلفية التجمع في مقهى الخريجين، حيث وردت إلينا أنباء عن تآمر ما يحدث هناك لقلب نظام الحكم.

ذعر السائر مما وجه إليه حتى قال في قرارة نفسه .. حكم؟، أي حكم؟، أنا لا أعرف من الرئيس أصلاً -مجازًا-، فقال للمحقق وهو في كامل البلاهة :

- نعم؟ .. هل قصدتني بالخطاب؟

- أنا لا أتكلم مع غيرك.

- أنا لا أعلم شيئًا عن كل هذا الكلام.

- هل سبق لك الانضمام إلى نشاطات سياسية؟

- إطلاقاً !

- ماذا تعرف عن الفتاتان والشاب اللذين بالخارج؟

- لا أعرفهم، ما جمعني بهم إلا قانون الطوارئ.

نظر له المحقق قليلاً ثم قال له :

- حسنًا، تستطيع أن تخرج الآن.

ونادى المحقق الحارس ليأخذ السائر إلى خارج المكتب متجهًا به إلى زنزانة جماعية تحوى من النزلاء أعدادًا كثيرة، و أثناء الممشى أراد السائر استطلاعًا للرأي، فسأل الحارس قائلاً :

- هل أسجن على هذه التهمة السياسية التي نسبت لي؟

- لا أدري ولا تحادثني كثيراً.

- ولكن أنا لم أفعل شيئًا صدقني !

- لا تزعجني أقول لك .

- لن أزعجك، ولكن ماذا سيحدث بعد ؟، هلا أخبرتني من فضلك ؟

- بما أنه لم يخلى سبيلك، فمؤكد أنك أخذت خمسة عشر يومًا استمرار.

- أنا حقًا أعترض، قبل أن تختصر .

- ماذا تقول ؟

- لا شيء لا شيء .

ودخل الفتى الزنزانة الجماعية حيث لا تعيبرًا أدبيًا ولا منطقًا كلاميًا، يقدران على عكس حالة نفسية لسجين داخل المحبس، أربعة جدران ليس لهم خامس، اليوم مثل البارحة وغدًا لن يختلف عن نظيره القريب، نفس الوجوه نفس الحديث، لا صوت يعلو فوق مطلب الحرية، حتى وإن كان السجين قاتلاً!، في السجن ما لا أذن تسمع إلا التي سمعت عن كثب ودنت لتعي، ولا أعين رأت إلا تلك التي عاينت حق المعاينة، للسجن عادات وتقاليد لا يعرفها إلا أهله، فإذا أخبرت بأن موضع نومك لن يتجاوز القبضة والشبر أعتبر أن هذه من المسلمات، جلس السائر بالزاوية يتطلع إلى من سجن لإتجاره بالمخدرات، وسنه لم يتجاوز من العمر عشرين عامًا، أمرٌ عجيب أن يتاجر في مثل سنه، متى تعرف على عمالقة التجار ؟، وأين وجدهم؟، وكيف صار الأمر مستساغًا؟، المجتمع يعج بأمثاله ؟، فصار الأمر طبيعيًا ؟، فزفر الحاكي دمعه وهو يقص حكايته، بأن له أخوة والأب طاعن، وكل الدوافع جعلتني مجرمًا!،

وبين من سرق ومن قتل، وبين وبين، ولا يفوتنهم في هذا اللقاء، أن يرى العدد الوافر من المسجونين على هامش "المطالبة بحقهم في الأسماء" !، ظل ينصت لهم ويسمع أنين شكواهم حتى بزغ الفجر .

لا يزال الجالس يترقب مجيبًا !، ولكن ما من مجيب، حتى قال في نفسه"وهل العلة حقًا كامنة في تفاحة أقل ما يقال عنها أنها مخلوق يتكامل به كل هذا النظم وكل هذا الخلق" فجثى على ركبتيه من الهم، وانسابت يداه بجانبه وتفككت أعصابه وراح لا حول له ولا قوة، نظر إلى السماء ثم أجهش بالبكاء الهامر فقال من أعماق قلبة " يااااارب "

وفي المدينة قد عجب الناس ليوم لم يذاع فيه عن أذان الفجر من المسجد الذي يقبع بداخلة الشيخ الكريم، لم يدري أحدًا بمرض الشيخ ليلة البارحة، ذهب القوم على التو إلى المسجد قاصدين تنبيه الشيخ للصلاة، فدخل غير واحد إلى حرم المسجد وآخرون عند محراب الصلاة، ارتفعت بعض الأصوات التي مفادها أن "أين الشيخ"؟، أخذ الجميع يبحث عن الشيخ ولا أحد يراه !، وقف أحدهم بجوار الأريكة يقلب كف فوق كف ويقول "أين راح الشيخ!"؟، لقد أغشى على القوم فهم لا يبصرون !، الشيخ مُلقى فوق الأريكة يصارع الألم ولا أحد يراه !، "أين ذهب الشيخ" ؟، هكذا ارتفعت الأسئلة منها استنكارية ومنها استفسارية، ظل القوم في عمل وبحث دأوب، يفتشون هنا وهناك، فجالوا بالمدينة باحثين عن الشيخ!، وفتحت نوافذ المنازل وخرج منها رؤوس البشر لمشاهدة الجاري، لا أحد يعلم إلى أين ذهب، فصارت مقولة "أين ذهب الشيخ" على ألسنة الناس أجمعين، لم يكل الرجال عن البحث حتى جاء الصباح الزاهي، فضاع الفجر في ليلتهم عندما غفلوا عن الشيخ!"أين ذهب

الشيخ "؟!، إنبرى القوم بحثًا في كدٍ وتعب من التنقيب، في ذلك الحين ارتفع صوت الطفلة المشردة بقولٍ قصدت به الطفل :

- "تفتكر مشكلتنا هتتحل"؟

ببراءة الأطفال تسئله وهي تمسح المخاط المنساب من أنفها بطرف ثوبها المتسخ وقد أسندت ظهرها للجدار بجواره، رغم أنه يكبرها فقط بحوالي أربع سنوات، إلا أنها تعتبره رجلها في هذه الدنيا، هي لا تعرف سواه، هو من يحميها في رحلتهم اليومية من أطفال الشوارع ومضاقيتهم، أقصى طموحاتها أن يكون في القاع حفل عرس تنعم ببقايا طعامه التي تسد به رمقها، منذ أن تشردت في الشوارع، هي لا تدرك متى حدث ذلك لأنها لا تتذكر أي فترة في حياتها قضتها في أي مسكن سوى الشارع، منذ هذا الوقت وهي اعتادت أن تجمع بقايا الطعام من القمامة، لم تكن مشكلتها يومًا المبيت، فتحت الكباري، وعلى الأرصفة، وبجوار أبواب المساجد متسع للجميع، لم تكن مشكلتها الملابس، هي لم تسمع عن دولاب الملابس الذي يحتوي على ملابس شتوية وآخرى صيفية، هي لا ترتدي إلا ثوبًا واحدًا حتمًا ستجد خلال السنة من يحنو عليها ويعطيها إياه والحمد لله؛ جسمها الصغير لا يحتاج الكثير من القماش ليستره، المشكلة أن في هذه الأيام حتى القمامة بخلت عليهم بالطعام فقلما تجد ما يكفيها، وكأن الناس توقفت عن الأكل وبالتالي عن إلقاء البقية في القمامة، لذا أصبح من الطبيعي أنه مقابل اليوم

الذي تبيت فيه قد امتلأ بطنها الصغير من الطعام، فهناك عشرة أيام تبيت جائعة، لم يشرح لها أحد أن هناك حالة خانقة ضربت بالجميع، الكل يقتصد في المصروفات، لا أحد لديه أكل حتى يرمي بقاياه، وحتى لو شرح لها، لن تفهم، ما تفهمه أنها جائعة الآن، هذه هي مشكلتها التي تبحث لها عن حل، عندما تأخر عليها في الرد، كررت عليه السؤال وهي تحك بأظفارها السوداء الطويلة، شعرها المنتفش الذي لم يمسه الماء منذ زمن بعيد، وفي نفس الوقت تمسك بيدها آخر كسرة خبز يابسة كانت معها في الكيس القذر الذي تجمع فيه بقايا الطعام :

- "تفتكر مشكلتنا هتتحل"؟.

أنباء قد ضجت لها شاشات التلفاز، تعلن عن موجة غضب جامحة اجتاحت المدينة، وذلك في اليوم الأول من شهر يناير عام إحدى عشر بعد الألفين، لم تكن على غير المتوقع، بل كانت منتظرة ومرتب لها مسبقًا، بعض شباب الجامعات قد اتحدوا في منتصف العام الماضي وأطلقوا على أنفسهم "كفاية"، على إثر هذه الظهيرة التي التف حولها الكثيرون ، راح الأمر يتصاعد والتأيد إليهم يأتي من كل حدب وصوب فاندلعت ثورة غضب لم يسبق لها مثيل داخل المدينة، الكبت جعل من الناس وحوش إنصرم عنها الإدراك والعقلانية، فهاجت المدينة وماجت، حتى تناشبت الأطراف وراح الأقتتال مدويًا، ليقتل على وهم الضلالة أمةً، والناس في المدينة انقلب حالهم، كان بالأمس القريب يستطيع النفر أن يروح ويأتي بكامل الحرية، ولا أحد يتعرض له، الآن صرت تفتش تفتيشًا ذاتيًا من السكان أنفسهم !، قتل الأمان مع أول نقطة دم أريقت ظلمًا على أرض المدينة، حلت لعنة الشك على القوم كما هبت رياح الفوضى، في هذا الحين ارتفع ولع القوم وشغفهم لإيجاد الشيخ الغائب، فلقد تعاظمت عليهم الفتن المظلمة في تتابع، كان الشيخ في السابق يريهم علمًا ينتفعون به عند النوازل، الآن قد راح الشيخ مطرودًا حتى وإن ادعوا البحث عنه، الحاجة هي ما تجعلهم يبحثون لعلهم،

وقف جمع من الناس ينادي: "يا أيها الناس لابد أن نجد الشيخ في أسرع وقت ممكن، فالشيخ آراءه سديدة في مثل هذه المواقف، ولقد زقنا وبال

الفوضى دمًا، اعملوا بني آدم على البحث الدائم فهنالك أمل لا تفرطوا فيه بعد .

يرتفع مذياع المسجد من حين لآخر يقولون فيه :

- أيها الناس من يجد الشيخ يخبرنا في الحال.

صارع الشارع لا يعرف الآن سوى كلمة واحدة "أين ذهب الشيخ"، اجتمع الناس لينظروا في أمر الشيخ، ولقد أصاب اقتراح أحدهم أن يتم الاجتماع داخل المسجد بالموافقة، حيث المكان الذي أفنى الشيخ فيه عمره، فقال أحدهم :

- لو كنا فيما سبق غافلين عن الشيخ، فاليوم نحن في أمس الحاجة إلية .

فقال آخر :

- صدقت نحن في أمس الحاجة إلى تعليماته السديدة.

فرد ثالث :

- ولكن أفلا نستحي من أنفسنا ؟، إذ نلتجئ إليه حال الكوارث والنكبات، رغم أنه كان أمامنا طوال الوقت آنفًا ؟

فاستنكر رابع على الثالث :

- كلامك هذا يتناقض مع أقوال الشيخ نفسه، حيث سمعته يقول، لا تيأس من طول أمد البعد لأن الأعمال تقاس بالذرات، فمن عمل مثقال ذرة يرى ولا تحقرن من المعروف شيئًا، ففي اللحظة التي تقرر أن تسجد وتقترب أفعل، لأنك لا تعلم بعد ثوان قلائل أي منقلب تنقلب .

فصدق الناس على القول الأخير بالاتباع حتى صعد شاب يقول فيهم :

- أيها الناس تعالوا نسجد إلى الله ركعتين، ثم ندعوه دعاء الحاجة، وإن شاء الله لمهتدون.

فاصتف الناس على قول "أستووا" وراحوا يقنطون لربهم سجدًا .

انتهى الناس من التركع فسلم الإمام ليتم الصلاة، نظر المصلين بعضهم لبعض، الجميع ينتظر أن يتكلم الأخر فمن المحتمل أن يلهم أحدهم بشيء، لم ينطق أحدًا بكلمة، حتى جزع الناس، وفي الشارع يعلوه أصواتًا تردد مقولة "أين ذهب الشيخ"!، في آخر الصفوف المصتفة بالمسجد ارتفع صوت لشاب قارب العشرين قائلاً :

- أيها الناس أقول لكم شيئًا، لقد تذكرت عقب الصلاة قولاً للشيخ لابد أنه سينفعنا في رحلة البحث هذه، ألم يقل الشيخ ذات يوم، بأنه سيأتي عليه زمان يكون فيه بمثابة الغريب بين القوم وهو بينهم ؟

نظر إليه الناس نظرة لا تعبر عن شيء حيث أحدًا لم يفهم ماذا كان يقصد الشيخ آنذاك، فارتفعت أقاويل الأنفس فيما بينهم، أن ما معنى الغربة أصلاً إذ نسكن ديارنا؟، هذا الشاب حديث سن وقد يصعب عليه عمق ما عشناه نحن ككبار، فقال أحد المسنين :

- لنعيد الكرة، فلنقنط لربنا مرة آخرى فعسانا أن نرشد .

و في المحبس اندهش السائر لما يحدث حوله من انفلاتٍ أمني بين النزلاء، حيث فتحت أبواب المحابس على مصراعيها فتهافت المساجين على الهروب تهافتًا، انتاب السائر الشعور بالخوف ولم يهرب هو الأخر، فهو لم يعلم بالذي حدث في الخارج، حتى راح أخر واحد بالزنزانة هاربًا أمام عينه وصار وحيدًا، هنا جاءت له بوادر القرار التي دفعت به بالخروج هو الأخر، في ممشاه نحو البوابات لم يجد أثر لإنسان على سبيل حراسة، أو حتى مسجونًا مكبلاً، فوثب العجب على عقله وثبًا، أخذ يقصد الخروج أكثر فأكثر، حتى وطأ الشوارع العامة للمدينة، مشهد عجيب لقد صارت الشوارع فارغة إلى حد الغرابة !، أهذه الشوارع التي كادت أن تنفجر من كثرة البشر سابقًا ؟، راحت خاوية على عروشها، ظن في نفسه أن أهل المدينة قد رحلوا، وظن أيضًا أن هناك حربًا وسكان القاع قد أسروا !، شيئًا ما غريب، أحوال غامضة تحدث، هناك عجل سيارات ملقى على قارعة الطريق مشتعل بالنيران، لماذا؟، هل هذه أفعال ثورة ؟، فهل ثارت المدينة على الأسميون حقًا ؟، ولكن كيف ؟، كانت تقول المدينة فيما سبق قولاً بأنهم قادرين على احتلال العالم ولن ينجلى حكم الأسميون !، هذه قناعتهم عبر العقود !، فهل تلاشت عقيدة القاع ؟، دقق السائر بأنظاره نحو جمعٍ يُقدم عليه، وكأنهم يحملون الأعلام التي كُتب أعلاها بعض الكلمات المختصرة من فئة، "إرحل"، "عيش، حرية، عدالة

اجتمايعة"، فترامت الأصوات الشبه مُنفجرة لتسمع السائر عن جد، حتى ارتفعت السائر حماسته ولم يكذب خبرًا وراح يردد وراء الشباب :

"حرية ، حرية ، حرية "

وظلت المسيرة تسير وتضم البشر حتى وصلت الميدان، وفي الميدان لم يختلف أحدًا على مطلب، إذ أن كل المطالب وحدت، في الميدان عبر أهل المدينة عن كل ما تجنبوه سلفًا خشية واتقاء تقاة، في الميدان اجتمعت كل الفصائل وانتحر التناحر ، وفي الميدان لم نسمع للطائفية نعيقاً ، في الميدان طفا من كان له الحق في الرموق وغمر من كان متسلقًا على هامش النفوذ والسلطان، كان الميدان مفردة، كالتي بدأ بها الكون، العهد الذي سبق الميدان اعتراه عقائد مصطنعة قد افتقرت لدليل مثلما افتقرت للمنطق، وفي الميدان بكى الشباب فرحًا، وفي الميدان تبادلوا الأحضان عشمًا، شعور وجداني في تلك الأحضان كحضن الغريب عن الأوطان، فالميدان كان مسرح الحقيقة التي طمست، وفي الميدان ارتفع صريخ الشباب بهجةً عندما أعلن عن نجاح الثورة:

" لقد قرر سيادته التخلي عن منصب رئيس الجمهورية "

ثورة من الفرح التي كاد على إثرها أن يتبادل الثوار اللطم حتى تقنع بأن ما يحدث حقيقة وليس خيال، تجمعت الشباب على كل الأصعدة، يغنون

وينشدون ويتبارون شعرًا في حب الوطن، حتى قيل أن "فيها حاجة حلوة" ولست أدري ماهية هذه الحاجة

ورسمت على غرار ذلك الرسمات، وصار الليل طويلاً ممتعًا، والنهار عزبًا مصاحبًا، أحدًا لم يشعر بالجوع رغم الفاقة التي تعاني منها المدينة، ولكن كلٌ صب في كوب الأخر، أتعلمون عن ماذا أتحدث ؟، قالوا أنها " الحرية"، وشيء من العدالة الاجتماعية"، استتبت الأوضاع إلى الحد الذي يمكنهم فيه من مناقشة الأمور الطارئة على طاولة النقاش في هذا الوقت الراهن، ومن ثم أتخذ القرار بأن تدفع عجلة الخطوات لكي تنجلي هذه الفترة الانتقالية العصيبة، على إثر ذلك تجمع كل الرجال المعنيين بالأمر وكبار رجال الأحزاب، حددت جلسة ستجمع بين الشباب ومباعث الأحزاب، حتى يطرح الشباب ما عنده وتتفاعل الأحزاب معه، سمع السائر بتلك الدعوة فاعتراه شعورًا بأن كل ما ذاقه من معاناة قد زهق، فقفزت رسالة "الخلاصة" في ذهنه على الفور، حيث أنه تكلم فيها كثيرًا، فصار يقول في نفسه :

" لابد أن أعرض على هذا الجمع كثيرًا من الأمور التي انبريت فيها، فمن الممكن إن لم تحدث تغيرًا ساعدت على التغير أو على الأقل ألحقت أحدًا بالركب، من فوره ذهب إلى البيت مسرعًا، ثم دخل الشقة متجهًا نحو الأوراق التي عَافَ عليها الزمن، فنظفها من الأتربة جيدًا، ثم أخذها واتجه صوب المؤتمر في عجالة لم يسبقها، سيتحقق الحلم ؟

لقد امتلأت القاعة عن بكرة أبيها، لقد حوت عددًا باهرًا، جمع هائل من الشباب أحاط بالرجال الجالسة، طاولات كثيرة يلتف حول كل واحدة لا يقل عن ستة مقاعد، على كل مقعد يجلس من كان ولازال يطمع أن يكون وزيرًا، رجالاً ونساءً ببزاتهم السوداء الشهيرة، ونظراتهم المتعالية المعهودة، وخيلاء مجلسهم المسبوق، قفز قلب الشباب فرحًا ورقص طربًا، فينادى على الأول فيصعد ليدلي بدلوه، فتقام له حالة من التصفيق، فينادى على الأخر وهكذا، ظل السائر ينظر في أوجه المعنين ويتفرس أوضاعهم، هاجس ما أعطاه أمل من تلك الوجوه، ليفيق من شروده على صوت التصفيق، إذ ينادى عليه أن يتقدم:

" فليتقدم المدعوا سائرًا"

راح يخطوا متجهًا إلى المنصة، حتى وقف أعلاها وتمكن أيضًا من الوقوف أخذ نفسًا عميقًا كي يقمع به الارتياب ثم نظر إلى رسالة الخلاصة التي فتحها ليقرأ منها قائلاً:

- بسم الله.

"الخلاصة"

مضمون الرواية في سطور،

في البدء أحب أن أستهل حديثي بالترحاب الجميل على السادة الحضور، شبابًا كانوا أو رجالاً، كما أرحب ترحيبًا خاصًا على كل من شاركنا الثورة، أقول لكم سر تواجدي معكم اليوم، ولكن بعد أن أقدم نفسي إليكم، أنا أدعى السائر "هكذا نعتني الكاتب"، حاصل على لسانس الحقوق، ولست أدري لماذا لا يضعون بجانب كلمة حقوق كلمة واجبات أيضًا ؟، عمري خمسة وعشرون عامًا، عملي لا أستطيع تحديده الآن لأني بدون عمل، أثناء دراستي للحقوق كنت مولعًا بالقراءة عامة، وبقراءة المذاهب الفكرية خاصة، بجانب البحث في المعتقدات والأديان الإبراهيمية، وكلما قرأت وزادت المعرفة أيقنت بأن الصمت هو أبلغ العلوم نطقًا، وذلك لكثرة من يهرف بما لا يعرف، ومع الوقت انتابني شعور بأن أناقش الواقع بشكل موضوعي وليس بنمط ابتذالي، وقد تكونت هذه القناعات عندي بعدما قرأت كثيرًا من الكتب، وإن شئتم الدقة من "الروايات" من التي لم تقم إلا على الابتذال إن لم تكن بالإيحاء الجنسي كانت بالتراشق اللفظي، أو بالمعلومة الهلامية الخاوية من الدليل، ودائما ما كنت أتعجب، ليس على صعيد الكاتب وحسب ولكن من دور النشر التي قبلت هذا التدني الفكري من البداية، ومن ثم أصابني الفضول

بأن أتعمق في الأمر، فنظرت إلى ساحة القراء والمثقفين لأجدها تمثل في نسبتها المئوية رقم ضئيل جدًا يكاد يكون 2% من المجتمع هذا، ونرى أن هذه القلة أكثرهم لا يفضلون إلا قراءة "الرواية" عادلين عن كتب العلم التي تعج بالفكر، ومن هنا جائتني فكرة أن أكتب، فلعلني أصل باللون الذي يحبونه "الرواية" إلى هؤلاء الشباب، ومن خارج الصندوق أقول :

" أن هذه بمثابة دعوة لتفعيل موهبتك الساكنة، فجميعنا موهوبون بنسب متفاوتة، حتى وإن لم تكن على قدر عالٍ في تطويع الكلمة لتكتب كتابًا، فمن المؤكد بأنك تمتلك موهبة أخرى "كالتصوير مثلاً"، فالصورة اليوم قادرة على اختصار ألف مقولة، وهكذا بين كل المواهب التي تريد التنمية، لابد أن يشاركوننا هذه الثورة الفكرية التي نحن بصددها، على إثر ذلك أقول "الخلاصة" في شيء من الفلسفة الفكرية، وهو إعمالاً بالقاعدة التي تقول، بأن كل النهايات تعد بدايات لأشياء أخرى بأبعادٍ أخرى .

والناظر الحاذق في أحوال المجتمع بهذه النظرة لابد قبل أن يطرح موضوعًا للتناول حقيقٌ عليه أن يتصور الأمور من جميع جوانبها وحيثياتها، ذلك حتى يعطى حكمًا صحيحًا وعلاجًا مداويا وفكرًا مستقيمًا، وخلال رواية "مدينة القاع" تعرضنا لبعض الأطروحات الاجتماعية :

1- كالتحرر.

2- العزوف عن الدين.

3- الجرائم.

4- الشذوذ الفكري في صورة -الإلحاد-.

5- التعسف القانوني.

من كل هذه الآفات لن تكون هذه الرسالة كالميسيا أي المخلصة، ولكن قد تكون معذرة إلى ربكم، وللتبيان من يسترجع مواقف "رهف"، سيجد أن نهاية تحررها وعدم انصياعها للتاء المربوطة كان بدايته أنها " قبلت عرضًا "، وكذلك الجالس، بدء إلحاده من حيث انتهى أمله "الشذوذ الفكري"، والشيخ الذي يمثل "الدين" في المجتمع، نهاية الناس معه أنهم جعلوه بأيديهم غريبًا، فكانت البداية أنهم تاهوا حق التية "العزوف عن الدين"، وكذلك السائر كانت بدايته بعد أن شكل الحال مبادئه الجديدة بأن يتكسب من غير المشروع "الجريمة"، وقس على ذلك الكثير والكثير، فالملحد أو المجرم أو المتحررة، يبدأون من حيث ينتهي الأخرين؛ وهذا الطرح ليجعلنا ننظر للواقع بنظرة عميقة أرادت الصلاح، هذا وأقول أنها مجرد رسالة من محب ليس إلا .

انتهى السائر من عرض أقواله التي كتبها على الورق، حيث كان ينظر لها ويقرأها على الحضور، حينها تفاعلت كل الشباب الحاضرة مع الكلام فهم غير واحدٍ منهم بالتصفيق سعيدًا وابتهاجًا فلقد سمع صوت الشباب أخيرًا، شيء

ما مريب حدث بينهم، التف الشباب يمينًا ويسارًا مندهشين!، لقد رحل كل الرجال المعنية دون أن يشعر بهم أحد !، فالشباب كانوا يسمعون بقلوبهم قبل آذانهم لذلك أحدًا منهم لم يدرك رحيل رجال الأحزاب، فضجت القاعة ضحكًا وكادت الأرض أن تسخر ممن حلم بالتغير !، فذهب الشباب أيضًا، وترامى من بينهم قولاً شهيرًا يحفظة أهل القاع جيدًا أنه "مفيش فايدة".

لملم السائر أوراقه التي بثها، ثم طواها تحت إبطه ورحل بعيدًا عن القاعة، دون حديث، لم يتكلم حتى مع نفسه، لقد عجز الكلام عن الكلام، قصد القاع الذي أواه، عند دخوله القاع نظر إلى أعلى فرأى الجالس جاثيًا على الركاب وعيناه تفيض دمعًا في توسل عساه أن يتقبل منه، فتقدم خطوات وئيدة، ليرى القوم يبحثون عن الشيخ بنهم، ومنهم من راح يبكي أثناء السجود عساهم أن يجدوه، نظر داخل المسجد فوجد الشيخ مستلقيًا على الأريكة وقد غلب عليه النور، فتقدم خطوات في يأس لتستوقفه كلمات عجيبة أثارة دهشته، حيث كانت تقول الطفلة للطفل :

- "تفتكر مشكلتنا هتتحل"؟

نظر إليها الطفل وهو يبتسم من سذاجتها، ظنت أن هذا الجمع الذي رأته سيحل المشكلة، هذه المرأة المتأنقة ذات الشعر الأصفر، التي تمسك الميكروفون بيديها وهي تشعر بالضيق و الاشمئزاز من المناظر حولها،

والرائحة التي تملأ المكان قبل التصوير، ثم بعد أن صرخ أحدهم وهو يعد الأرقام بالمقلوب :

- (3 - 2 - 1) .. صوّر ..

إذ بها تبكِ وهي تتحدث عن هذه المشاهد المؤلمة وتجة نداء للمسؤولين ..إلخ، وهؤلاء الرجال معها الذين يمسكون الكاميرات ويوسعون لها الطريق لتكلم هذا وتدع ذلك، التقطوا له ولها صورة وهما يسندان ظهريهما إلى الحائط، تظن أن ما حدث اليوم سيغير من الأمور شيئًا!، لقد شاهد هو المشهد من قبل منذ سنوات، مذيعة تخرج إلى الشارع لتجري، تحقيقًا صحفيًا وحولها هؤلاء، نفس المشهد منذ سنوات؛ وفي النهاية سمعها أيضاً وهي تقول:

- أوجه نداء للمسؤولين لحل هذه المشكلة

ثم انصرفت، يومها لم يفهم ما معنى كلمة "نداء للمسؤلين" وسأل عنها بعض من يكبرونه في السن الذي ضحك من سذاجته، ثم ضربه على قفاه وجرى، لم يفهم لماذا ضرب، ولكن من يومها وأصبحت كلمة "نداء للمسؤلين" كلمة سيئة السمعة بالنسبة له!، أفاق من تخيلاته على صوتها وهي تسأله :

- أنت ما بتردش ليه؟ تفتكر مشكلتنا هتتحل؟

ابتسم "حُلم" هو الأخر من سذاجتها، متملكًا عليه الصمت فلقد سافر في رحلة أبكت القلم واشتكت منها الكلمات، وصل إلى أخر ورقة بين يديه وقبل أن يختم كتب :

" مجتمع اللاشيء لا يعبر عن شيء ولا يعطي شيء ولا يتركك أثراً في نفوس القوم".

حقوق الطبع و النشر محفوظة